صراحة
من زمن التنوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (2276) السنة الثامنة
الخميس (13) تشرين الاول 2011

قاسم محمد الرجب

5
أسرار طريفة في مذكرات قاسم الرجب..!

قاسم محمد الرجب وراقا ذواقا..

قاسم الرجب في شبابه

وحيد الدين بهاء الدين

اذا عرفت سوق السراي او الوراقين كما كان يقال بعد غير قليل من الكتبيين وان شئت فقل: اصحاب المكتبات الذين دخلوا عالم المطبوعات والمخطوطات، بيعا وشراء، واحرزوا الثقة في التعامل التجاري والمكتبي مع المتصلين بهم والمترددين عليهم، فان قاسم محمد الرجب فاق هؤلاء واولئك بما وهب من عصامية والمعية.

ومن قدرة على التحرك الموضعي، كلما دعت الضرورة واقتضت الحاجة في المضمار الذي جند فيه طاقاته الكامنة وهو يتعاطى مهنة الكتب والمكتبات، ويتبنى عملية التراث العربي الاسلامي احياء واغناء..

بدأ الرجب مسيرته في مطلع الثلاثينيات عاملا صغيرا.. اجيرا في المكتبة العربية للحاج نعمان الاعظمي، راتبه الشهري ستمائة فلس كما جاء في مذكراته حتى انتهى مالكا لصرح ثقافي هو مكتبة "المثنى" ومجلة فريدة لا سابقة لها في العراق والوطن العربي هي "المكتبة".

على ان مسيرته هذه وقد استغرقت اربعا واربعين سنة بانوارها وظلالها صيرته قابضا على صولجان هذه الحرفة الحضارية الانسانية، عارفا اخبارها واسرارها، ذائقا حلاوتها ومرارتها. ولا تحسبن كوركيس عواد مجاملا او مغاليا حين شبهه بابن النديم والحاج خليفة بقوله: "واذا كان قد اشتهر في العصور السالفة جماعة من العلماء بالكتب امثال ابن النديم صاحب "الفهرست" والحاج خليفة صاحب "كشف الظنون" ففي وسعنا القول: ان الاستاذ قاسم محمد الرجب ممن ينبغي ذكرهم في زمننا في هذا الميدان الفسيح.. – انظر مجلة "المكتبة" تموز ١٩٦٠.

الخلص من هذا ان الرجب وراق ذواق، تاجر مطبوعات ومخطوطات: استيرادا وتصديرا. مطالع لها، معني بها من طراز مثالي. قائم على امرها في وطنه بقدر ما تسمح به الحل والمال، وفي خارج وطنه على قدر معلوم.. خدمة للفكر العربي.. للذخر الاسلامي ترويجا وتأصيلا، ثم توسلا به وركونا اليه في عالم متغير، وليكون هو – هنا مركز الثقل – قدوة للاخرين في حياته، ومن بعد مماته.

من هنا ساق اليه اكثر من واحد من العلماء الاعلام في العراق وخارجه شعراً ونثراً تثمينا لجهوده وتقديرا لشخصه منهم، صلاح الدين المنجدّ – عبد العزيز الميمني الراجكوتي.. محمد عبد الغني حسن.. احمد حامد الشربتي.. عبد القادر البراك.. مصطفى جواد.. وهو الذي قال فيه في مقطوعة:

مكتبة فاقت على المكتبات
واهبة للعقل اسمى الهبات
دوحة اداب على حجمها
فينانة اغصانها مزهرات
و"الرجبي" الشهم أهدي له
تحية تزهو على النيرات
سرتم على نهج شريف المدى
غايتكم في الكتب والمكتبات

من هنا صار الرجب موضع ثقة الافراد والجماعات وبعض الجهات الرسمية.. اقول: ان مدير مكتبة الجامعة الامريكية ببيروت لدراسته علم المكتبات نظريا وليس عمليا استعان بالرجب سنة ١٩٣٧ ليتولى تنظيم المكتبة العامة ببغداد لمعرفته ما في بطون الكتب تطبيقا، بينما ورثة العلامة محمود شكري الالوسي طلبوا اليه سنة ١٩٣٨ ان يقوم ببيع خزانته الخاص نيابة عنهم واعتمادا منهم عليه. وفي مطلع الستينات أوفد الرجب رسميا من لدن "لجنة معرض التراث البغدادي" الى بعض الاقطار العربية والبلدان الشرقية الاسلامية لانتقاء المخطوطات النادرة من خزائنها بمناسبة انعقاد مهرجان بغداد – الكندي. ثم لا يغرب عن بالنا ان وزارة المعارف كانت تكلفه في بعض المراحل الدراسية باعداد كتب التربية الدينية لتلاميذها وطلابها.

وقاسم الرجب لم يكن مجرد تاجر كتب، او عارض لها وانما كان صاحب رأي وموقف في هذا المناخ الذي يتنفسه ويتحسسه ببصره وبصيرته يشحنهما وهجا وسدادا تذوقه الفطري لكل مطبوع ومخطوط، وتمرسه الفعلي بواقعه واثره، كذلك لم تكن مكتبة "المثنى" كأية مكتبة اعتيادية اخرى تطالعك فيها الرفوف العالية وهي تضم المطولات القديمة والمصنفات الحديثة وتختزن المباهج الفكرية والروحية وخلاصات التجارب والحضارات، وانما كانت ملتقى ومنتدى يؤمهما من كل صوب وحدب ادباء وعلماء.. مستشرقون ومستعربون، تتواصل بينهم محاورات شتى ومداخلات.

بعد ثلاثين سنة وتجربة الكتاب والمكتبة تصقل الرجب صقلا، وتزيده اكبابا على عمله وعلمه، ثم تعطيه الضوء الاخضر ليخطو خطوة اخرى جديدة.. اصدر نشرة شهرية هدفها واضح ومنظورها اوضح: هي "المكتبة" لتعكس واقع مكتبة "المثنى" وطابعها وتنشر على صفحاتها اسماء ما يردها من ارجاء الوطن العربي ودوائر الاستشراق والاستعراب من المؤلفات والنفائس استتماما لمهمتها وخدمتها، وانهاضا اكبر بحضورها الثقافي عامة والمكتبي خاصة.

صدر العدد الاول من مجلة "المكتبة" في شهر مايس ١٩٦٠ بثلاثين صفحة من القطع المتوسط جاء فيه: ان الصلة وثيقة ولازمة بين المكتبة والكتاب والقارئ وهذه الصلة الحبيبة الى النفوس والقلوب هي التي دعت مكتبة المثنى لاصدار هذا الملحق الشهري الثقافي علما منها ان الجمهرة الكبيرة في العراق وخارجه ستقدر هذا المسعى الادبي وهذا الجهد الثقافي الذي تبذله خالصا لرعاية الكتاب العربي ونشره وتعريفه لدى القراء.

انما هذه النشرة ما لبثت ان تطورت فصارت مجلة تلفت الانظار والافكار، من حيث احتواؤها على مواد طريفة في الادب والنقد، وعلى شذرات واستطرادات تعود على الواقع الثقافي والمكتبي في العراق بجزيل الفوائد وكبير الاثار فضلا عما تنشره من قوائم الكتب والموسوعات والدواوين وفهارس المطبوعات التراثية المختلفة حتى جاوزت صفحات بعض اعدادها المئة وكان لمحررها مهدي القزاز – الدور الملموس فيما بلغته المجلة من التقدم والانتشار. وحين جابه الدكتور صلاح الدين المنجد هذه الحقيقة تتجسد ازاءه كتب) "ان الافراد في شرقنا قد يقومون احيانا باعمال عجزت عنها الحكومات نفسها وان صاحب مكتبة المثنى مثال واضح لذلك فان مجلة المكتبة التي يصدرها قد سدت مسد هذه النشرات التي كنا نطالب بها، واذا به وحده يقوم بما كان ينبغي ان تهتم به الهيئات الرسمية والمؤسسات العلمية".. انظر مجلة المكتبة – كانون الثاني ١٩٦٢.

ثم ان الرجب بحكم امتلاكه امتياز هذه المجلة ما كان متوانيا عن رفدها بارائه وافكاره، كالتعقيب على واقعة، او عرض حال، او ازالة لبس. مثلا شارك ادباء عراقيين وعربا في دراسة مشكلة الكتاب العراقي والعربي كما انه رد بشدة على الدكتور جواد علي لتحامله على المستشرق الالماني كارل بروكلمان بشان كتابه "تاريخ الادب العربي" في الوقت الذي كان فيه الرجب نفسه يشير عبر مقالاته الى هنات بروكلمان العلمية والتاريخية – المكتبة نيسان ١٩٦٢ – كذلك نقد الرجب كتاب "ابحاث عن تاريخ العلوم الطبيعية والرياضية" للدكتور احمد شوكت الشطي بتجرد معرجا عليه هذواته وسقطاته.

ولاسباب ادارية وفنية وربما شخصية – كما اتصور – جعلت مجلة "المكتبة" في اعوامها الاخيرة تتعثر وتتكمش بل وتصدر عدة اعداد في جلدة واحدة حتى كان توقفها النهائي في اواخر سنة ١٩٧٢ .. الى جانب ذلك كله ان الرجب على مدى اكثر من عشر سنين، تولى اصدار فهارس ضخمة للكتب الجديدة الواردة اليه والمخطوطات النادرة التي اعاد نشرها على وفق مواصفاتها الاصلية لكثرة الطلب عليها، وزيادة الاهتمام بها.

كان تقديرا الهيأ ان يموت قاسم محمد الرجب في الواحد من نيسان ١٩٧٤ وهو ببيروت وليس ببغداد.

ومن كانت منيته بارض

فليس يموت في ارض سواها

ثم كانت خسارة ثقافية ان يشب حريق في مكتبته – وقد الت الى اولاده بعد رحيله – في صبيحة العشرين من آب ١٩٩٩ "شبوبا" لم يترك الا رمادا وبقايا كتب محروقة.

كتب هذا الموضوع في عام 2000 في ذكرى رحيل الرجب ونشر في ملف خاص صدر عنه انذاك

على هامش حريق مكتبة المثنى

عبد الحميد الرشودي

الرجب في المانيا في الستينات

ما كاد صباح الجمعة الموافق لليوم العشرين من اب ١٩٩٩ ينشر خيوطه الاولى، وما كادت اقدام السابلة في شارع المتنبي تدب حتى انس نفر منهم نارا تندلع من نوافذ الطابق العلوي من مكتبة المثنى فوقفوا هلعين واجفين وهم يستقبلون ذلك الصباح العبوس القمطرير وراحوا يستنجدون ولا من منجد ويستغيثون ولا من مغيث حتى حضرت فرقة الاطفاء فكسرت باب المكتبة الموصد واقتحمت البناية وشرعت تؤدي واجبها ولكن بعد تمكنت النار من المكتبة وانتشرت في جميع جوانبها اجل من ان فرقة الاطفاء استطاعت بعد لأي ان تخمد النار المستمرة في المكتبة التي اتت على جميع رفوفها فتركتها ركاما من رماد واعمدة من دخان.

فمن يستطيع يا ترى ان يخمد نيران القلوب التي تأججت في صدور رواد المكتبة ومريديها الذين تولوا مما قدمته لهم من ينابيع الثقافة والمعرفة خلال ستة عقود من الزمان وتزيد ذلك ان مكتبة المثنى لم تكن ملكا خاصا لاصحابها من اسرة قاسم محمد الرجب ولا اذويهم فحسب بل في ذلك فشاع لجميع اهل الادب وحملة الاقلام ورجال العلم في هذه البلاد وجزء لا يتجزأ من تراث هذه الامة فقد ذهب بذهابها انفس المطبوعات واندرها التي كانت قرة عين اصحابها ومفخرة من مفاخر والدهم تذكرهم بجهوده وجهاده وما لقي خلال نصف قرن من النصب والرهق فطالما ركب الاهوال وتجشم المخاطر حتى استطاع ان يقيم قواعد هذا الصرح الثقافي الشامخ الذي صار مصدر اشعاع لا في العراق فحسب بل في جميع الاقطار العربية والدوائر العلمية والجامعية في العالم اجمع.

ان مسيرة حياة مؤسس هذه المكتبة قاسم محمد الرجب جديرة بالبحث والتأمل والاعتبار فقد كان – رحمه الله – مثالا رائدا للعصامية الفذة والارادة التي لا تقف دونها العقبات والمثبطات.

لقد كان قاسم الرجب ثاني ثلاثة اخوة اشقاء، هم: جاسم محمد الرجب المولود سنة ١٩١٤ والمتخرج من دار المعلمين العالية وقد مارس التدريس والتفتيش حقبة من الزمن مد الله في عمره وقاسم المولود سنة ١٩١٧ والمتوفي في بيروت ١٨٧٤ والحاج هاشم الرجب المولود سنة ١٩٢٠ والمتخرج في دار العلوم في الاعظمية وهو خبير المقام العراقي ومؤرخه القدير.

بدأ قاسم محمد الرجب خطواته الاولى عاملا في (المكتبة العربية) لصاحبها نعمان الاعظمي الكتبي وبعد ان ثقف فنون العمل المكتب افتتح مكتبة صغيرة في سوق السراي والحق بها مخزنا عاما ضاقت بطوحه انتقل الى دكان ارحب في مدخل السوق من جهة بناية المحاكم ثم جاءت نقلته الثالثة الى دكان اوسع في عمارة فايق الالوسي (شغلته بعد ذلك مكتبة المعارف لصاحبها محمد جواد حيدر) في شارع المتنبي.

اما النقلة الكبرى والاخيرة فكانت الى هذه البناية وهي دار فخمة انيقة مشيدة على الطراز الغربي مع تحوير وتطعيم بالطراز الشرقي البغدادي وهي ذات طابقين وقد كانت قد شغلت قبل ذلك من قبل الطبيب ماكس مايكافوسكي "البولوني" ثم شغلتها مديرية الشؤون الاجتماعية للمنطقة الوسطى وبعدها صارت مركزا لقائممقامية لواء بغداد.

لم يقف طموح قاسم الرجب عند ايجار هذه البناية بل اهتبل فرصة بيعها فاشتراها فصارت ملكا خاصا به فتصرف فيها تصرف المالك وجعل منها منتدى ادبيا وعلميا يؤمه رجال العلم والادب والقانون وقد خصص يوما في الاسبوع لمجلس خاص تحضره نخبة كريمة من وجوه البلد واهل الفضل من امثال: شفيق العاني، حسين جميل، مكي السيد جاسم، صادق كمونة، عبود الشالجي، كوركيس عواد، ميخائيل عواد، ضياء شيت خطاب، كمال الدين الطائي، صبحي السامرائي، هاشم الخطاط ، مصطفى علي، يوسف يعقوب مسكوني، عبد الرزاق الظاهر، احمد حامد الصراف، مصطفى جواد وغيرهم كثير ممن يفوتهم الحصر ويخطيهم العد.

لم يكن قاسم الرجب تاجر كتب فحسب بل كان عارفا بمحتوياتها وقد تجاوز معرفته الغلاف الى المحتويات التي يعرف اجمالا ما يحتوي عليه الكتاب من موضوعات وبذلك يحدد الاشخاص الذين يرغبون فيه ويدلهم عليه وكثيرا ما ارشد الباحثين الى المصادر التي تعينهم في بحوثهم ودراساتهم ولعل من المفاخر التي تسجل لهذا الرجل وما اكثر مفاخره انه خط الى اعادة طبع كثير من كتب التراث النادرة التي طبعت في ولايبزك وباريس واستانبول ومصر وغيرها من الحواضر والتي كانت تباع بمئات الباونات فلما اعاد طبعها مصورة بالاوفسيت اصبحت ميسورة لجميع الباحثين والدارسين وبارخص الاثمان ولعل نظرة عجلى نلقيها على بعض تلك الكتب تبين لنا مدى قدرة هذا الرجل ولعبته ونظرته المستقبلية الصائبة:

١- المنجم في اصحاب التاجي ابي علي الصدفي تأليف القضاعي.

٢- كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لخليل الظاهري المطبوع في باريس سنة ١٨٩٤ بعناية بولس راديس.

٣- تقويم البلدان لابن ايوب صاحب حماة.

٤- الممالك والمسالك لابن خرداذبه.

٥- نظم العقيان في اعيان الاعيان للسيوطي، تحرير فيليب حتي.

٦- انشاء الدوائر وملحقاته لابن عربي (بريل ١٣٣٦ هـ).

٧- المجلد السابع من كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته طبع في لبنان – مطبعة بريل ١٨٩١.

٨- مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه – ليدن – بريل ١٣٠٣ هـ.

٩- كتاب المصاحف للسجستاني بتصحيح الدكتور ارتر جفري.

١٠- كتاب نهاية الاقدام في علم الكلام للشهرستاني بتحرير الفريد جيوم وتصحيحه.

الى غير ذلك من الكتب التي لا تحصى ولا تنقص والتي تكفلت بذكرها فهارس المكتبة ونشراتها والذي ذكرناه ما هو الا غيض من فيض.

ولما آن لقلب قاسم الرجب المجهد ان يستريح ويسلم روحه الى ورائها في بيروت في ١٩٧٤/٤/١ تسلم الراية من بعده انجاله الكرام.

> من يستطيع يا ترى ان يخمد نيران القلوب التي تأججت في صدور رواد المكتبة ومريديها الذين تولوا مما قدمته لهم من ينابيع الثقافة والمعرفة خلال ستة عقود من الزمان وتزيد ذلك ان مكتبة المثنى لم تكن ملكا خاصا لاصحابها من اسرة قاسم محمد الرجب ولا اذويهم فحسب بل في ذلك فشاع لجميع اهل الادب وحملة الاقلام ورجال العلم في هذه البلاد

في مصر مع صاحب مكتبة الخانجي

قاسم محمد الرجب (1917 . 1974)
مكتبة المثنى ومجلتها (المكتبة)

أ . د. إبراهيم خليل العلاف

قاسم محمد الرجب (١٩١٧ ـ ١٩٧٤) ، مكتبي عراقي، بل هو من ابرز المكتبيين العراقيين الرواد .. فلقد كانت مكتبته (المثنى) ، بمثابة منتدى ثقافي ودار للنشر ومطبعة وأداة لتسهيل وصول الكتاب إلى أيدي محبيه رغم الكثير من العوائق .. فهو من الأوائل الذين اهتموا باستنساخ أمهات الكتب العربية عبر ما يسمى آنذاك بـ (الأوفست) .. و فضلا عن هذا فقد اصدر مجلة تعنى بالكتاب ، علما وفنا وتجارة ، تلك هي مجلة المكتبة .

ولد قاسم محمد الرجب في حي ألا عظمية ببغداد سنة ١٩١٧ ، أي مع موعد احتلال بغداد من قبل الإنكليز أبان الحرب العالمية الأولى ، لذلك لم تتيسر له فرصة إكمال دراسته ، فتوقف عن الدراسة إلى الصف السادس الابتدائي .. كتب عنه صديقنا الأستاذ حميد المطبعي في موسوعة (أعلام العراق في القرن العشرين) وقال بأنه اشتغل في بداية حياته العملية في المكتبة العربية في سوق السراي ببغداد سنة ١٩٣٧ وفي السنة ذاتها اختمرت في ذهنه فكرة فتح مكتبة ، فأسس مكتبة المثنى أول الأمر في دكان صغير . مقابل سوق الذهب ، ثم انخرط في سلك الجندية واسهم في ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد الإنكليز ورجاله في العراق سنة ١٩٤١ ثم واصل بعدها العمل في المكتبة متنقلا من دكان إلى آخر وأخيرا اشترى بيت الدكتور صائب شوكت وهو طبيب معروف أنذاك وحوله إلى مكتبة المثنى في شارع المتنبي ببغداد .. ومنذ ذلك الوقت وهو يسعى من اجل تطوير الكتاب ، طباعة وإخراجا ونشر مئات الكتب وأقام مجلسا في باحة مكتبته يرتاده العلماء والمفكرون والمؤرخون والأطباء . اصدر فهارس عديدة لنوادر مكتبته ١٩٥٨ ، ١٩٦٨ ، كما نشر كتاب (٥٠) فلسا وفيما بعد تغيرت التروبسة فيما لتصبح ((المكتبة مجلة شهرية للكتب والكتاب)) . كما ظهر الى جانب اسم صاحب المجلة فيما بعد اسم رئيس التحرير مهدي القزاز والمدير المسؤول عبد الكريم جواد المحامي وكانت المجلة تطبع في مطبعة شفيق ببغداد وصفحات المجلة تراوحت خلال فترة صدورها بين ((٧٠ ـ ٩٠ صفحة)) ، و كانت المجلة تعد ، بحق ، ((فتحا جديدا في الصحافة العربية، ولونا ثقافيا فريدا تقبله القراء بالغبطة والسرور ليس في العراق فحسب بل وفي جميع أقطار الدنيا العربية ودوائر الاستشراق الأجنبية وجميع المعنيين بشؤون الثقافة وتيارات الفكر في العالم)) .

وقد عبر ((صفوة المفكرين وعلماء المشرقيات)) عن فرحتهم بصدور المجلة وابدوا إعجابهم بها واثنوا على خطوطها الثقافية ، كما حظيت بتقدير أعلام الباحثين والمثقفين في البلاد العربية .. وقد اسهم في تحريرها نخبة كبيرة من الكتاب والمفكرين والعلماء والمثقفين العراقيين وغير العراقيين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، الدكتور صالح احمد العلي ، والأستاذ احمد حامد الصراف والدكتور يوسف عز الدين والأستاذ عبد الرزاق الهلالي والأستاذ نهاد عبد المجيد والدكتور مصطفى جواد والدكتور شكري فيصل والأستاذ كوركيس عواد والأستاذ مهدي القزاز والأستاذ هيثم الكيلاني والأستاذ فؤاد جميل والأستاذ سلمان هادي الطعمة والأستاذ هلال ناجي والأستاذ فؤاد يوسف قزانجي والأستاذ محمد صادق الموسوي والأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف والأستاذ جليل العطية والأستاذ خليل إبراهيم العطية والأستاذ علاء الدين خروفة والأستاذ مكي الجميل والأستاذ مشكور الأسدي والأستاذ سليم المعروف والأستاذ حكمت توما شي والأستاذ الدكتور احمد حامد الشر بتي والدكتور محسن غياض والأستاذ فريد الطاهر والأستاذ حميد مجيد هدو والأب يوسف سعيد والأستاذ مصطفى حسنين والأستاذ عبد الكريم جواد والدكتور علي جواد الطاهر والأستاذ محمود العبطة ، والأستاذ عامر عبد الودود والدكتور فاروق عمر حسين فوزي والأستاذ محمد هادي الأميني والدكتور عبد اللطيف حمزة والأستاذ الدكتور عبد الكريم الأمين والأستاذ خالد محسن إسماعيل والأستاذ كاظم الخليفة والأستاذ خضر عباس الصالحي ، والأستاذ محمد جعفر ألا سدي والدكتور حسين مؤنس والأستاذ فؤاد افرام البستاني والأستاذ عدنان عبد الكريم قدوري والأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور صفاء خلوصي والدكتور إسماعيل ناجي والسيد توفيق الفكيكي والأستاذ عباس العزاوي والأستاذ خضر العباسي والأستاذ ناجي محفوظ والأستاذ محمد سعيد العريان والأستاذ جميل احمد الكاظمي والشاعر احمد الصافي النجفي والأستاذ عبد القادر البراك .

وكان في المجلة أبواب ثابتة منها : ((مطالعات في الكتب)) و ((رسائل القراء)) و ((أخبار ثقافية)) و ((حياة الفكر والثقافة)) و ((أنباء الكتب والكتاب)) و ((ظهر حديثا)) و ((الكتب الجديدة)) و ((أخبار الأدب والأدباء في كل مكان)) . و ((أدب)) و ((معرض الكتب والكتاب)) و ((الكتب العراقية الصادرة حديثا)) و ((كتب نادرة أعادت طبعها مكتبة المثنى)) .

مع نقيب الصحفيين الاسبق طه الفياض والكاتب مهدي القزاز سنة ١٩٦٣

على صفحات مجلة المكتبة نشر الأستاذ قاسم محمد الرجب ((مذكراته)) بعنوان : ((مذكراتي في سوق السراي)) وفيها كشف الكثير من المعلومات عن حياته ونشأته العصامية وكذلك حول صناعة الكتاب في العراق ووضع المخطوطات ومما قاله ان المخطوطات كانت تصل الى بغداد من كربلاء والنجف الاشرف ومن الموصل وكان يتسوقها ألكتبي الشيخ مهدي رئيس وغيره ويعرضها على نعمان ألا عظمي والأب انستاس الكرملي فان لم يوفق في بيعها لهما عرضها على الأستاذ المؤرخ عباس العزاوي رحمهم جميعا . ومن كركوك كان يتسوق المخطوطات الملا صابر حافظ وهو رجل مسن .. أما في الموصل فكان يسوقها شاكر شنشل صاحب المكتبة الوطنية فيها . وقال ان سوق السراي كان واحدا من المناطق التي يحرص زوار بغداد على ارتيادها لشراء الكتب ، فلقد زراها كثير من العلماء والمؤرخين والأدباء والسياسيين منهم عبد العزيز الميمني الراجكوتي أستاذ العربية في جامعة عليكره والرحالة والاديب امين الريحاني والعالم بالمخطوطات محمد امين الخانجي (المصري) ومن المستشرقين الذين زاروا السوق (غوتهليد وايل) الذي حقق ونشر كتاب (الإنصاف بين النحويين) للانباري والعلامة ريتر ناشر سلسلة المكتبة الإسلامية والمتخصص بعلم الفرق وعلم الحديث وقد بلغ ما نشره (١٨) كتابا منها فرق الشيعة للنوبختي والوافي بالوفيات للصفدي .

لقد أعاد قاسم الرجب ، عبر مكتبة المثنى ، طبع كتب نادرة منها البدء والتاريخ المنسوب لابي زيد البلخي وعلم الفلك وتاريخه عند العرب للمستشرق الإيطالي كارلو أ . نالينو وزبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك لابن شاهين الظاهري وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابي القاسم زين الدين ابن قطلوبغا وتاريخ ابي يعلي حمزة بن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق وكتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ واصول الدين في علم الكلام في الفرق لعبد القادر البغدادي وتقويم البلدان لابي الفداء والممالك والممالك لابن خردابه وتجارب الأمم لمسكويه .

واهتمت (المكتبة) بالصراعات الفكرية بين الكتاب والأدباء ومن ذلك نشرها نقد الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) للأستاذ عباس محمود العقاد وتساؤلها انه كيف جاز لكاتب مجمعي مسلم يشترك في الإشراف على مجلة الازهر ان يقول ان رأيه في المرأة هو رأي الخالق !!

وافردت للشخصيات الفكرية البارزة جانبا من صفحاتها ، فلقد كتب عن المستشرق الجيكوسلوفاكي الدكتور جان باكوش (عمره سنة ١٩٦١ كان ٧٢ سنة) وهو أستاذ في دراسات التصوف الإسلامي ومتخصص باللغات السامية واحد علماء السريانية . كما كتبت عن حياة الاقتصادي الوطني اللبناني اميل البستاني ونبهت إلى أن جورج برا ون وزير الخارجية البريطانية (١٩٦٧) كتب مقدمة لكتاب عن البستاني ألفه دزموند ستيوارت ، الصحفي والأكاديمي البريطاني المعروف وصاحب كتاب الشرق الأوسط الحديث والذي سبق له ان عمل أستاذا في قسم اللغة الإنكليزية في كلية الآداب بجامعة بغداد أواخر الخمسينات واوائل الستينات من القرن الماضي ، كما وقفت عند شخصيته الدكتور عبد المعيد فان أستاذ في الدراسات العربية والإسلامية في الجامعة العثمانية في حيدر اباد في الهند وقد قام بزيارة الى العراق (١٩٦٦) .

كان للكتب التي تنشر عن الإسلام والعرب والفكر الفلسفي والاجتماعي في بلاد الشرق موضع في طيات وصفحات المكتبة .. التي حرصت على التعريف بكل ما ينشر خارج العراق ، فلقد أشارت الى كتاب صدر في موسكو بعنوان : ((الفكر الفلسفي والاجتماعي الحديث في بلاد المشرق)) والذي ألفه مجموعة من المستشرقين السوفييت آنذاك (١٩٦٦) .. كما كتبت عن كتاب الإسلام الذي أصدره المستشرق الفرنسي بيير رندو وقالت ان ماكس ما لوان الاثاري المعروف وزوج اجاثا كرسيتي اصدر كتابا بعنوان (نمرود وبقاياها) وان مطابع طهران أنجزت طبع كتاب الذريعة الى تصانيف الشيعة لاغا بزرك الطهراني ..

ووضعت المجلة خطة لتوثيق حياة أدباء الأطباء في العراق الحديث ، فعهدت الى الأستاذ سليم المعروف للكتابة في عددها (١١) السنة الثانية ، آذار ١٩٦٢ عن الدكتور معمر خالد الشابندر ، وفي العدد (٢) ، السنة الثالثة (حزيران ١٩٦٢) للكتابة عن الدكتور إسماعيل ناجي

واحتوت المجلة على صور لبعض الكتاب والمفكرين والصحفيين والمستشرقين والباحثين والمؤلفين الذين كتبت عنهم .. لقد كانت مجلة غنية بالمعلومات ، زاخرة بأخبار الكتب والكتاب .. لذلك تعد ، بنظرنا مصدرا مهما لكل من يريد توثيق الحياة الثقافية العراقية المعاصرة خاصة وأنها ظلت مستمرة في الصدور حتى منتصف السبعينات من القرن الماضي.

كان للكتب التي تنشر عن الإسلام والعرب والفكر الفلسفي والاجتماعي في بلاد الشرق موضع في طيات وصفحات المكتبة .. التي حرصت على التعريف بكل ما ينشر خارج العراق ، فلقد أشارت الى كتاب صدر في موسكو بعنوان : ((الفكر الفلسفي والاجتماعي الحديث في بلاد المشرق)) والذي ألفه مجموعة من المستشرقين السوفييت آنذاك (1966) ..

أسرار طريفة في مذكرات قاسم الرجب..!

نوري السعيد يوزع كتب أسامة بن منقذ على زائريه

خاص بالمدى

قاسم الرجب

نوري السعيد

يعرف المتتبعون ان للمرحوم قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد الذي توفى سنة ١٩٧٤ مذكرات على جانب كبير من الأهمية والطرافة سماها (مذكراتي في سوق السراي) ويقصد بها ذكرياته وانطباعاته عن حركة الكتاب في العراق وأخبار المؤلفين مقتنى الكتب منذ تأسيس مكتبة المثنى سنة ١٩٣٦ في زاوية من زوايا سوق الوراقين في بغداد (سوق السراي)، ولا يخفى ان المرحوم الرجب كان على صلة حميمة بأعلام الفكر العراقي في الخمسين سنة الأخيرة وتسنى له الاطلاع على أسرار مذهلة من حياة هؤلاء الناس فسجلها في مذكراته.

وقد نشر صاحبها قسما منها في السنين الأخيرة في مجلته الذائعة الصيت (المكتبة) وبقي قسماً آخر مخطوطاً ينتظر رؤية النور.

وقد سررنا عندما أخبرنا الصحفي القدير الراحل رشيد الرماحي في تحقيقاته الأخيرة عن نية أصحاب مكتبة المثنى طبع مذكرات الرجب كاملة، ولكي أقدم صورة لطبيعة المذكرات أسوق بعض الصور التي وردت فيها راجياً الإسراع بإخراج هذه المذكرات وتعميم فائدتها للجميع.

١- عندما سافر الوصي عبد الإله ونوري السعيد الى أمريكا زارا جامعة برنستون في نيوجرسي وقدمت اليهما هدية هي جملة نسخ من كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ الذي عني بتحقيقه الدكتور فيليب حتي، وكان هذا الكتاب من أحب الكتب الى نوري السعيد اذ كان كثيراً ما يشتري مني قبل أسفاره نسخاً منه ليقدمها هدايا الى معارفه، وكان الذي دله على هذا الكتاب وحببه اليه عبد الرزاق الحسان (رحمه الله) وكان عبد المسيح وزير وأحمد المناصفي هما اللذان يتوليان شراء الكتب لنوري السعيد.

٢- وفي سنة ١٩٣٧-١٩٣٨ عهد اليّ ببيع مكتبة العلامة محمود شكري الألوسي وكنت أعثر في داخل الكتب التي أبيعها على قصاصات مختلفة من رسائل مختلفة أرسلت اليه ليجيب عليها، وكانت أكثر تلك الرسائل مرسلة من العلامة الأب انستاس الكرملي، وقد جمعت مجموعة من هذه الرسائل وقدمتها هدية منذ سنين طويلة الى عبد الستار القره غولي وهو كما كان يتصف به من كرم وخلق رفيع أهداها الى عباس العزاوي المحامي فقبرت عنده كغيرها من الكتب والرسائل.

٣- كما عرفت السيد مصطفى علي ووقفت على مزاجه وأخلاقه صرت أعرض عليه كل كتاب جديد، واذا انشغل يوماً ولم يمر بالمكتبة ذهبت بنفسي الى مقر وظيفته في مديرية الطابو العامة وكانت غرفته تطل على دجلة وكان معه في الغرفة نفسها عباس فضلي خماس المفتش في المديرية المذكورة، فشاهدت في عينيه ما حصل في وثبة سنة ١٩٤٨ فكتب رسالة طريفة مؤثرة سماها (الى الحليفة الغضبي) وجعلها بتوقيع مستعار هو معمر العداوني وطلب الي ان انشرها عندما أسافر الى مصر، فأخذتها وأخفيتها وسافرت بها.

والرسالة كتبت بأسلوب بليغ ومؤثر وفيها تلميح وتجريح بالوصي ووزارته ولاسيما نوري السعيد ولما كمل طبعها عملت علماً تشبه الكتب وشحنتها الى بغداد وكنت أنشط من يوزع الكتاب الممنوع من أصحاب المكتبات، واذا بالشرطة والتحقيقات الجنائية تشعر بي وبالكتاب فكبست بيتي والمكتبة واقتادوني الى شرطة السراي بعد ان أخفقوا في العثور على نسخة واحدة لأنني كنت أخفيت ما بقي من الكتاب لدى إدارة جريدة (اليقظة) لصاحبها سلمان الصفواني الذي كان يرحب بإخفاء كل ما يمنع من الكتب السياسية والقومية عنده متحملاً المسؤولية.

ولما مثلت أمام حاكم التحقيق وكان أنذاك السيد علاء الدين الوسواسي وكانت دائرته بشارع حسان بن ثابت في إدارة جريدة العرب فيما بعد.

٤- ومن عملاء السوق الفضلاء العلامة الشيخ أمجد الزهاوي وهو يقتني كتب الحديث والفقه والتفسير، وعندما يختار الكتب ويريد شراؤها فانه لا يساوم على أثمانها بالرغم من ان أصحاب المكتبات لا يقر لأسعارهم قرار.

وعند تمام موافقته على الشراء فأنه لا يدفع ثمنها حتى يلقن البائع صيغة البيع الشرعية ويتسلم الكتب، واذا أراد الدخول الى المكتبة فأنه لا يدخلها قبل ان يخلع نعليه ويضعهما تحت أبطه وهو بهذا يتحاشى ان يدوس ورقة قد يكون عليها لفظ الجلالة أو أي اسم مقدس آخر.

قراءة
في ذاكرة مكتبة المثنى

د. نادية غازي العزاوي
باحثة واكاديمية عراقية

-١-

يوم دخلت مكتبة المثنى أول مرة هالني ما رأيت: رفوف على رفوف مرصوصة بالكتب تغطي الجدران إلى السقف، وباحة مفتوحة على وجوه ميّزت – بسهولة – قسماً منها لأنها وجوه مألوفة في الصحف والمجلات وشاشة التلفاز، أثرت فضولهم فاستدارت الوجوه نحو فتاة تخترق هذا العالم وحدها بحقيبة صغيرة تتأبّطها، تدور مع الخزائن وتصعد معها على السلالم إلى الطابق الأعلى، يتخطّفها بريق عشرات العنوانات الذهبية التي تطرّز المجلدات السود والخضر الداكنة، إختارت (ديوان المعاني لأبي هلال العسكري)، ونزلت إلى المجتمعين في الأسفل وقد علت أصوات مناقشاتهم وتطايرت منها كلمات عن (مرجليوث) و(طه حسين) و(نظرية دارون) و(زكي مبارك) و(أسانيد علماء الحديث)........... دفعت الثمن وخرجت.

اعتراني شعور جارف برهبة العلم، وهي تجربة تتكرّر معي كلما دخلت صرحاً ثقافياً عتيداً كهذه المكتبة، إذ أكاد أسمع حفيف أقدام التاريخ تمرّ بالقرب مني وأنا أستنشق عبق أوراق الكتب والمخطوطات. بالتقادم غاصت هذه الحادثة اللذيذة في تلافيف النسيان، ولم تستيقظ إلاّ نهاية تسعينات القرن الماضي فزعة على وقع الخبر الصاعقة: حريق مكتبة المثنى المدمّر، محاط بهمسات عن (فعل فاعل) بل (فاعلين) تآمروا على الإطاحة بهذا الصرح الثقافي العتيد، كان هذا الحريق استكمالاً لسلسلة من الخسارات الثقافية الفادحة التي مني بها العراق، وصولاً الى الطامة الكبرى حين نهبت المكتبات والمتاحف واستبيحت المواقع الأثرية عام ٢٠٠٣، ومـــا زال الحبل على الجرار.........

-٢-

بدأب المؤرخ المنقّب والمحقّق العاكف على وثائقه يتحفنا الدكتور (عماد عبد السلام رؤوف) بأعمال يثري بها المكتبة العراقية والعربية، وهاهو يقدّم كتاب (مذكرات قاسم الرجب)× بمقدمة وافية وهوامش دسمة. ولئن دبّر بليل أسود حريق مكتبة المثنى فإنّ هذا الكتاب جاء لترميم شيء من هذه الخسارة بتحويل المكتبة من ذكرى عزيزة أليمة في ضمير المثقف العراقي إلى حياة بهية حافلة بالوقائع والأرقام والعنوانات التي تستعصي على الزوال.

– ٣ –

(مواجيد عشاق الكتب)

كان اختياراً موفّقاً جداً من المحقق أن يجعل مفتتح الكتاب من نصيب المؤرخ البحّاثة (كوركيس عواد) في صاحبه (قاسم الرجب) وما بينهما من أواصر صداقة متينة إمتدت لعقود، بدأت بالتعارف بالكتب قبل التعارف الشخصيّ: ((عرفته أول ما عرفته في صيف سنة ١٩٣٦..........إني ما زلت أذكر ذلك الكتاب – أول كتاب اقتنيته منه في تلك الملاقاة – وهو (لبّ اللباب في تحرير الأنساب) للسيوطي (طبعة ليدن سنة ١٨٤٠)، فكان حجر الأساس في اقتناء أمهات الكتب العربية ونفائسها............، وإذا كان قد اشتهر في العصور السالفة جماعة من العلماء بالكتب أمثال إبن النديم صاحب (الفهرست)، وحاجي خليفة صاحب (كشف الظنون) ففي وسعنا القول: إنّ الأستاذ قاسم محمد الرجب ممن ينبغي ذكرهم في زمننا في هذا الميدان الفسيح)) (ص٦،٥).

في مساحة معتبرة من متن المذكرات سيرد ذكر كوركيس عواد في أكثر من موضع مقروناً بالتحية والتقدير من صاحبه الكتبيّ الذي أبى إلاّ أن يسجّل لوجه الحقيقة وقفات شجاعة ومسؤولة وقفها معه (عواد) في لحظات حرجة، دلّت على حرصه العلميّ وغيرته الوطنية والصداقة الإنسانية العميقة التي جمعت بينهما، كانا منسجمين معاً وهما يقدّمان بسخاء ومحبة كنوز المعرفة إلى القارئ العراقيّ والعربي. يقول قاسم الرجب عن صاحبه: ((ولن أنسى يوم ألحف عليّ في أن أطلب نسخة من كتاب (المختصر في أخبار البشر) لأبي الفدا المطبوع سنة ١٧٩٨ في كوبنهاكن بالدانيمارك، باعتناء المستشرق ريسكه وهو يتكوّن من خمسة مجلدات، وكان ثمنه ثلاثين ديناراً.......... بيد أنّ دائرة البريد لا تسلمني الكتاب ما لم أدفع مبلغ الحوالة، فما كان من كوركيس إلاّ أن اعترف بتسلّم الكتاب مني وسجّله في سجلات مكتبة المتحف ومن ثم صرف المبلغ لي، وبهذا تمكّنت من تسديد الحوالة وتسلّم الكتاب ثم تسليمه إلى مكتبة المتحف، ولا ريب أنّ كوركيس بما فعل عرّض نفسه للمسؤولية ووظيفته للخطر مساعدة لي. ذكرت هذه الحادثة.... لأدلّل على مدى اهتمام كوركيس بي وتشجيعه لي مادياً ومعنوياً منذ عرفته)) (١٢٦–١٢٧).

-٤-

(كيمياء الأمكنة والأسماء)

في ست عشرة صفحة ونصف قدّم د.عماد عبد السلام للكتاب، مقدمة تضمنت تفصيلات وافية عن جغرافية سوق السراي والمنطقة التي حوله، وعمقها التاريخي في الأقل من عام ٥٠٠هـ حتى تأسيس الحكم الملكي عام ١٩٢١م، كانت المنطقة فيها مجساً حقيقياً لنبض الحياة الثقافية في العراق: امتداداً وانكماشاً، تطوراً ونكوصاً، فكانت المدارس والربط تظهر بانتعاشها، وتختفي وتنسحب بتراجعها، لتحلّ محلها حرف ومهن أخرى لاتمت إلى الثقافة بصلة: ((بحسب التغيرات التي كانت تطرأ على وظائفه، فعرف في القرن الثامن عشر باسم (سوق الجبوقجية) وهم صانعو الجُبُق وبائعوه، والجبق لفظة تركية تعني اصطلاحاً ضرباً من الغلايين المستعملة في تدخين التبغ،...... ولقد صرّح الرحالة نيبور الذي أقام ببغداد سنة ١٧٦٧ أنه ما كان يوجد سوق للكتب في بغداد في عصره أصلاً)) (ص١٢). ثم دبت حركة التغيير والتحديث في المجتمع كله، وفي معالم هذه المنطقة ومنشآتها خاصة، فتأسست المدارس الحديثة، وزاد عدد المتعلمين، وظهرت الصحف والكتب المدرسية. وليست مصادفة في حساب التاريخ أن يتزامن تأسيس أول مكتبة لبيع الكتب عام ١٨٦٩ والتي أنشأها الملا خضر مع تأسيس أول جريدة رسمية في بغداد في العام نفسه، فالحدثان يؤشران عافية ثقافية واجتماعية سرت في جسد المجتمع العراقي.

من سحر الأمكنة سينتقل المحقق إلى تفكيك أسرار صاحب هذه المذكرات (قاسم الرجب) الظاهرة وليس الإنسان الاعتيادي، ذلك أن الجانب الأخير غائب تماماً عن مادة هذا الكتاب إلاّ قليلاً، فنكاد لا نعرف شيئاً ذا بال عن قاسم الإنسان والزوج في بيته وبين أفراد أسرته، كيف يمضي يومه؟ ماذا يحبّ؟ ما هواياته الأخرى؟ تسدل المذكرات ستاراً كثيفاً على هذه الجوانب إلاّ لقطات خاطفة لا تسمن ولاتغني من جوع، لأنها مشغولة بالوجه الآخر من هذه الشخصية، بقاسم الرجب الكتبي الذي يشكّل الكتاب عصب فكره ودمه وأعصابه.

يقدّم المحقّق عدداً من المفاتيح التي حولت هذه الشخصية من عامل صغير في مكتبة إلى كتبي بارع يمثّل ظاهرة قائمة بذاتها، نستطيع أن نستنبط من هذه المفاتيح: الذكاء الفطري، الولع بالبريد والمراسلة، حب المطالعة التي جعلته شغوفاً بالكتاب يطارده في كل مكان يعرفه به، المناخ الثقافي الحر والمنفتح في العراق من الثلاثينات حتى الستينات، مما هيأ قاعدة مساعدة ومناسبة لانطلاق أنشطته واستيعاب مشاريعه المتنامية، ثم روح المغامرة التي تلبّسته فجعلته رائداً يجرؤ على ما لم يجرؤ عليه غيره: فيستورد من مناشئ عالمية أولاً، ويصدّر فهارس لمكتبته ثانياً، ويعيد طبع نفائس الكتب بالأوفسيت ثالثاً، ثم رابعاً يصدر مجلة (المكتبة) المتخصصة الجادة التي قال عنها رئيس جامعة مشيغان في الولايات المتحدة الأمريكية في رسالة بعثها عام ١٩٦٢: ((إنّ مجلة المكتبة التي تصدرها مكتبة المثنى في بغداد مجهود أدبي كبير لم يسبق له مثيل في الشرق والغرب، وقد ملأت فراغاً كبيراً في عالم الطبع والنشر في العالم العربي)) (ص٢٠)، وكلامه شهادة دالة لأنها من أناس معروفين بالاقتصاد في عباراتهم ولايجيدون الإطراء الكاذب. كما أثنى العلاّمة (صلاح الدين المنجد) على التجربة قائلاً: ((إن الأفراد في شرقنا قد يقومون أحياناً بأعمال عجزت عنها الحكومات نفسها، وإنّ صاحب مكتبة المثنى مثال واضح لذلك، فإن مجلة المكتبة التي يصدرها قد سدّت مسدّ هذه النشرات التي كنّا نطالب بها، وإذا به وحده يقوم بما كان ينبغي أن تهتمّ به الهيئات الرسمية والمؤسسات العلمية)) (ص٢٠).

وللأسف في بلد مثل بلدنا تغيب فيه التقاليد المؤسسية التي تضمن تواصل الإنجازات بخطوات متلاحقة متصاعدة، أتساءل – بحزن لا يغيب عنه الأمل بالرغم من كل شيء–: ألا توجد مؤسسة، ألا يوجد أفراد مثابرون بهمة (الرجب) يؤسسون موقعاً مستقلاً له ولمكتبته على شبكة الأنترنيت، يؤرشفون فيه أعماله وسيرته ويعززونها بالصور والوثائق؟ والأهم من هذا وذاك يعملون على تحميل الأعداد الكاملة للمجلة التي أكاد أجزم أنّ كثيراً من الباحثين الجدد لايعلمون عنها شيئاً، أو لم يتح لهم الاطلاع عليها كاملة في أحسن الأحوال، إنها صفحات مشرقة من تاريخ الحركة الثقافية في العراق ينبغي ألاّ نسمح لها بالتبدّد.

آمل أن تصل هذه الأمنية إلى الشباب من آل الرجب – في الأقل– لتحقيقها وأن لا تضيع سدىً تلك الجهود العظيمة التي أنجزها هذا الرجل، وكيف يغيب عن القائمين على هذا البلد إطلاق اسمه على قاعة أو شارع أو ميدان في بغداد الفسيحة إحياء لذكرى هذا الرجل الذي حمل العراق بين ضلوعه وهو يغزل العلاقات الثقافية بين العراق والوطن العربي والعالم؟ وهل أغالي بالحلم كثيراً إذ أتطلّع إلى يوم تبنى فيه مكتبة كبرى في بغداد تحمل اسم مكتبة المثنى لتكون منتدىً موسّعاً؟ من يقرأ هذا الكتاب سيستوعب المغزى الحقيقي لصراع الحلم والواقع حين تنتصر المثابرة على عوامل الأحباط والفشل المحيطة بها، وتندفع نحو نجاحات متلاحقة إذ صار: ((للمثنى فروع في الموصل والبصرة وفي بيروت، ووكلاء في معظم الأقطار العربية، وزادت صلاتها التجارية مع دور النشر في العالم، وكان ذلك يزيد من وطأة العمل على صاحبها الذي ظل مندفعاً بروح الشباب على الرغم من تجاوزه العقد الخامس من عمره، بل إنه كان مستعدّاً لبذل المزيد من الجهد، ذلك أنّ أفكاره لم تكن لتنفد وأحلامه في النهوض بالكتاب العربي لم تكن لتنتهي))(ص٢١).

لم يكتف المحقق بالمقدمة الغنية، بل أغنى الكتاب بأكثر من ٣٠٠هامش إستغرق الجانب الأكبر منها التعريف بالأسماء التي ورد ذكرها في المتن، وما أكثرهم متوزعين على أجيال مختلفة ومشارب متنوعة: مؤرخين وصحفيين وقضاة وخطاطين ولغويين وساسة وأدباء ومدراء....إلخ، يشكلون مشهدا (بانوراميا) للحياة في هذا البلد، بعضهم مازال حياً في الذاكرة والقسم الآخر طواه النسيان، مما جعل مهمة المحقق ليست باليسيرة، ولكنها ليست بالصعبة أيضاً على مؤرخ ثبت خبير.

-٥-

(البحث عن البديل)

تبدأ المذكرات من الطفولة الشقية المغموسة بالحرمان، الذي انتزعها من دفء الأحضان الأسرية وألقى بها إلى واقع مثقل بالديون والحسابات المالية الجائرة، كان في الثانية عشرة من عمره حين غادر مقاعد المدرسة: ((ذلك أنّ وزارة المعارف كانت قد أصدرت في سنة ١٩٢٩ –١٩٣٠ الدراسية أمراً بتوحيد أزياء الطلاب في المدارس كافة، وتشجيع ما تنتجه معامل فتاح باشا للنسيج من الأقمشة....... فارتدى الطلاب جميعاً بدلات من ذلك القماش..... فاشتركت أنا ببدلة ودفعت قسطاً من ثمنها الذي لم يكن يتجاوز ٤٠٠ فلس، ولكني لم أتمكن من تسديد باقي الأقساط ووجدت أن حالتنا تزداد سوءاً يوماً بعد يوم......... ودخل أبي محدود جداً، بل لم يكن هناك ما يسمى دخلاً.....قررت الانقطاع عن المدرسة والتفكير بإيجاد عمل لي على صغر سني، وبانقطاعي عن المدرسة ربما أتخلّص من بقية ثمن البدلة التي ما زال بعض أقساطها لم يسدّد فتركت المدرسة)) (ص٣٢،٣١).

إستحضرت وأنا أقرأ هذه السطور بطل معطف غوغول، وبدا لي أنّ شبح البدلة ظل يطارد قاسماً، وأنّه في اندفاعه الحثيث و طموحه الجارف نحو توسيع مشاريعه وأنشطته، لم يستطع الانفلات من ذكرى تلك البدلة التي مازالت أقساطها لم تستوف كاملة، فهي التي أنزلته من دنياه الغضة الى واقع الكبار القاسي، واستبدلت بالعلاقة الأليفة الحميمة المجردة من الغايات النفعية(الأب/الإبن) علاقة جديدة ظالمة تقوم على منطق العرض والطلب (رب العمل/ الصبي) وتطرح قيماً صادمة ومستفزة: ((وكنت إذا احتجت إلى عشرة فلوس أجرة عودتي بالسيارة من بغداد إلى الأعظمية محل سكناي، وطلبت منه هذا المبلغ تلكّأ ورفع إصبعه إلى الروزنامة مشيراً إلى أن الشهر لم ينته بعد ولذا فإنه لن يعطيني هذه العشرة فلوس، فأضطرّ أن أذهب ماشياً ولو كان الجو بارداً قارس البرودة)) (ص٤٣).

إنها بعض الاستذكارات الأليمة وهو يدشّن حياته المهنية عاملاً في مكتبة نعمان الأعظمي في سوق السراي، لكن عجرفة الكبار لم تكبت طاقات هذا الصبي المنفعل بما حوله، المندفع نحو تعويض خسارات المدرسة النهارية ولازمتها (البدلة) بمدرسة ليلية ولازمة جديدة هي (الكتاب)، بدلته الجديدة التي سيتمكن هذه المرة من تسديد ثمنها: ((وكنت قد تمرّنت على العودة إلى بيتنا في الأعظمية ماشياً ما يقارب الستة أشهر من السنة بعد خروجي من المدرسة المأمونية عند انتهاء الدرس ليلاً، وبهذا فإنني استطعت أن أوفر بعض النقود أشتري بها جزءاً من كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني أطالعه.......فصرت أقتصد وأدخر لأقتني بعض الأجزاء......في كل شهرين أو ثلاثة)) (ص٤٤).

بعد مراحل من العمل والنجاح قد يظن القارئ أنّ ذكرى البدلة القديمة زالت و تلاشت آثارها النفسية، إنّه ظنّ غير دقيق فاللاوعي له منطق خاص به، إذ سيستيقظ من جديد شبح البدلة المنقوصة وفي ظرف متأزم غير بعيد عن سابقه: ((كلّفت يوماً الخياط الخاص لنعمان واسمه الحاج حمودي........ أن يفصّل لي بدلة أرتديها في عيد الأضحى، وكانت البدلة لا تكلّف أكثر من ٥٠٠فلس،..... ولمّا جاء موعد تسلّم البدلة أرسلت من يجلبها لي، ولكنّ الخياط امتنع عن تسليمها حتى أسدّد إليه الثمن، أو أن يكفلني أستاذي نعمان بدفعه، فالتجأت إليه، وعبثاً حاولت إقناعه بهذه الكفالة، ولمّا خاب سعيي – رغم ما بذلت من جهد – في الحصول على هذه البدلة التي لم يكن عندي غيرها بقيت في داري لا أخرج منها حتى انتهى العيد السعيد!))(٤٥).

على أنّ الولع بالكتاب كان قد سبقه ولع أقدم إهتدى إليه وهو في الصف الثالث الابتدائي، إبتدأ بفضول لذيذ ولكنه انتهى بصفعة من المدير، إنها لعبة (البريد) الطريفة التي تدلّ على تطلّع الصبي إلى مدّ الجسور مع الآخر، فضلاً عن جرأته المبكرة على التوظيف الحكيم لرأس المال وإعادة تشغيل الأرباح والعوائد، إنه يمتلك مخّ تاجر حاذق سيصبح أبرز كتبيّ في العراق في النصف الثاني من القرن العشرين، يقول الرجب: ((كنت مولعاً باقتطاع كل قسيمة «كوبون» من المجلات العربية أو الانكليزية لأبعث بها إلى ذويها، وكانت تلك الكوبونات تعلن عن الروائح أو نماذج تبغ وغيره......فكانت تصل إليّ يومياً أجوبة ونماذج ومجلات تملأ كيساً من أكياس البريد، وكنت أبيع بعض هذه النماذج لأوفّر أجرة الطوابع لإرسال تلك القسيمات........ ولن أنسى يوم استدعاني مدير شعبة البريد كي يراني، فذهبت إليه حافياً كأي طفل من أطفال الأعظمية الذين لم يتعوّدوا لبس الحذاء أو غطاء الرأس سوى «العرقجين»، فإذا به تستولي عليه الدهشة إذ رأى أمامه طفلاً قد شغل البريد بأجمعه، فلا يكاد يمرّ يوم دون أن تصل إليه إرسالية كاملة من مختلف أنحاء العالم)) (ص٣٤،٣٣).

وهكذا ظفر قاسم بلعبتين مثيرتين وجد فيهما العزاء عن وحشة البدلة المفقودة: المراسلة والكتاب، وبهما معاً تمكّن من تسوية حساباته الداخلية مع نفسه، وحساباته الخارجية مع الآخر، فلا التزامات باهظة تثقل كاهله ولا أقساط ثقيلة تنتظر الدفع.

-٦-

(تقارير ميدانية)

مع نزوله إلى سوق العمل نهضت أمامه عوالم جديدة كاملة لم يكن قد رأى أو سمع مثلها: أشخاص وأحداث وتجارب أسعدته و أشبعت فضوله، فراح يروي تفصيلات مثيرة عنها، من ذلك عادات الزبائن في شراء الكتب بكل ما تنطوي عليه من طرف وغرائبيات، يقول – مثلاً– عن الشيخ الفقيه (أمجد الزهاوي): ((وعند تمام موافقته على شراء صفقة الكتب فإنّه لا يدفع ثمنها حتى يلقن البائع صيغة البيع الشرعية، كأن يقول له: إنني اشتريت منك كذا وكذا وكذا بمبلغ قدره كذا فهل وافقت؟ فيقول البائع: وافقت، فيدفع إليه الثمن، ويقول له: هل قبضت؟ فيقول: نعم قبضت، فيتسلّم الكتب. وإذا أراد الشيخ أمجد الدخول إلى المكتبة فإنه لا يدخلها قبل أن يخلع نعليه ويضعهما تحت إبطه، وهو بهذا يتحاشى أن يدوس ورقة إذ ربما كان في تلك الورقة لفظة الجلالة أو أي اسم مقدّس آخر أو أي حرف يمكن أن يكون اسماً مقدّساً)) (ص٥٢).

ومن هذه الطرف الكثير مما انفرد به هذا الكتاب وهي حصيلة المعايشة والتجربة، فنحن القراء نعرف – بلا شك – المستشرق (جورج هيورث دون) محقق كتاب (الأوراق) لأبي بكر

مع بعض اصدقائه في لبنان في اوائل الستينات

الصولي مع آخرين، ولكن قاسم الرجب يحتجّ معرفة به من نمط خاص لم يشأ حجب حقيقتها عن القارئ،فقال: ((جورج هيورث دون الذي شهر إسلامه بعد سنوات وتسمّى باسم جمال الدين، ولكنني عرفته فرأيته مشعوذاً دجالاً جاهلاً،وقد زار العراق سنة ١٩٥٧،واقترض مني مبلغاً،ولما غادر العراق إثر قيام ثورة ١٤ تموز طالبته بالمبلغ فأنكره ومن الغريب جداً أن يحصل هذا من أجنبي))(ص٥٦).

ويضمّن مذكراته بيانات مهمة عن حركة سوق الكتب في العراق في تلك الحقبة بأصنافها المختلفة:العربية والكردية والإنكليزية،القانونية والجنسية والدينية والتاريخية: إستيراداً وتصديراً وطباعة وتوزيعاً معزّزة بالإحصاءات للتوثيق، – مثلاً– أنّ ((إيران تستورد ما يصلنا من نفائس الكتب بمعدل ٧٠٪،ويدخل في ذلك المصادر القيّمة الباحثة في التاريخ واللغة والدين والأدب،ولعل في طليعة الكتب العربية الرائجة في إيران دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي،وتفسير الشيخ طنطاوي الجوهري والمنجد وأقرب الموارد))(ص٦٣).

إنها معلومات ثمينة لا غنى للمؤرخ عنها لاستكمال دراسة الحياة الثقافية والفكرية في هذا البلد، بالتوافر على الأسباب والدوافع والمؤثرات المتحكمة في مفاصل الثقافة والإنتاج فيها.

ولمن يريد دراسة مسارات تطور العقل العراقي،وبحثه في لحظة ما من وعيه بذاته عن إجابات لأسئلة داخلية نوعية تشغله يمرّر قاسم الرجب المعلومة الخطيرة الآتية: ((ولم يصرف كتاب أسرع من تصريف كتاب (طبيعة المجتمع العراقي)للدكتور علي الوردي،فإنّ الكمية التي وزعت منه كانت ستة آلاف نسخة،نفدت كلها خلال خمسة عشر يوماً، وهذا أسرع توزيع وأقصى تصريف لمؤلّف من المؤلفات العراقية التي بلغ ما وزعته منها مئات الكتب)) (ص٢٠٤،٢٠٣).

ولا تقلّ أهمية عنها المعلومة الآتية: ((وأكثر الكتب التي طلبتها المكتبات الاستشراقية هو كتاب (على طريق الهند)لمؤلفه السيد عبد الفتاح ابراهيم،وكتاب (الألعاب الشعبية لفتيان العراق) تأليف السيد عبد الستار القرغولي))(ص١٣١،١٣٠).

– ٧ –

(الصياد الكامن)

من مفاتيح ظاهرة (قاسم الرجب) نزعة الصياد الكامنة فيه، التي تتعالى على السهل والمتداول إلى الصعب والعسير المنال، وهو ما عبرت عنه ثلاثة مصطلحات تكررت على نحو ملحوظ في صفحات كتابه: (النفائس)،(النوادر)،(الفرائد)،و لم تحل مصاعب المكان والزمان دون الوصول إليها ثم الزهو بامتلاكها: ((وكان من أنفس ما عثرت عليه واشتريته نسخة قديمة نفيسة من كتاب (نهج البلاغة)،كتبت سنة ٥٤٨ هج،وفيها زيادات إذ إنها كتبت عن نسخة المصنّف الشريف الرضي))(ص١٦٩)، ويقول عن زيارته إحدى المكتبات المصرية: ((وكنت أقتني بعض النوادر التي تزخر بها..... والمخطوطات النادرة،وأذكر أنني وجدت عنده نسخة من كتاب (جامع التواريخ في تاريخ المغول) تأليف رشيد الدين فضل الله المطبوع بباريس سنة ١٨٣٦ باللغة الفارسية باعتناء المستشرق كاترمير))(١٨٥،١٨٤). وما عزّ عليه من هذه الكنوز أو حالت أسباب دون الاحتفاظ به فإنه ظلّ يتابعه وينبّه عليه، فتناثرت في صفحات الكتاب تنبيهاته على نفائس محتويات المكتبات العامة والخاصة،ففي مكتبة دار السلام التي تأسست في بغداد عام ١٩٢٠ ((نسخة من تاريخ الطبري طبعة ليدن مهداة من المس بل، وكذلك وفيات الأعيان لابن خلكان طبعة أوربا))(ص٩٥)،وفي مكتبة العلامة محمود شكري الألوسي ((نسخة من رحلة ما سنيون إلى العراق وقد كتبها بالفرنسية حين زيارته بغداد له بطريق البصرة سنة ١٩٠٩ م،وهي تقع في مجلدين كبيرين طبعا بمطبعة المعهد الفرنسي في القاهرة سنة ١٩١٠.... وعليها كلمة الإهداء بالعربية بخط ماسنيون وتوقيعه إشتراها مني كوركيس عواد)) (ص١٤٥،١٤٤)، وفي ((كل من مجلس الأعيان والنواب مكتبة زاخرة بأنفس الكتب والمراجع القديمة والحديثة.....وذلك يوم كان طه الراوي سكرتير مجلس الأعيان،وكانت هاتان المكتبتان تتنافسان في الحصول على النادر والطريف من الكتب مهما غلا ثمنه)) (ص١٠٠).

– ٨ –

(بين السياسة والكتب)

لم تغب السياسة عن هذه المذكرات،وكيف تغيب والمواطن العراقي الاعتيادي سياسي بالفطرة يفلسف أحداثها وظواهرها وينفعل بمتغيّراتها،فكيف المثقف وفي شارع المثقفين:لقد تحدّث عن جوانب منها من واقع معايشة يومية،سواء ما تعلّق منها بالموقف الشعبي أم بأعلام السياسة في تلك الحقبة، فتقل – مثلاً– مشهداً درامياً لأثر نكبة فلسطين في تأجيج المشاعر الوطنية الشعبية قائلاً: ((وكان يهيئ السوق للمظاهرات والإضرابات ينشد هذه الكلمات المؤثرة: قم من القبر حزين يا أمير المؤمنين قتل الصهيون في القدس خيار المسلمين ..... فتجتمع خارج السوق ثم نسير، وربما حمل بعضنا الأعلام ماريين بشارع المتنبي متوجهين إلى جامع الحيدرخانة لنرى بقية أصحاب الحرف قد تجمعوا فيه مع كثير من الأساتذة والطلاب، ونبقى في الجامع لسماع الخطب الحماسية يلقيها خطباء بارعون قد تعودوا إلقاء مثل هذه الخطب المؤثرة..... وكنت أشاهد السيد حسون أبو الجين لابساً الكفن مضرّجاً بالدم في منظر مؤثر جداً يتقدّم المظاهرة وهي تسير في شارع الرشيد))(١١٣–١١٤).

بعض الذكريات التي رواها تؤكد الحراك السياسي العنيف في العراق إبان الخمسينات،هذا الحراك الذي يجعل أفراد الأسرة الواحدة يتوزعون بين انتماءات حزبية وميول أيديولوجية متباينة ومتقاطعة،فقاسم الرجب العروبي المنزع والتوجّه ظلّ في صفحات كتابه يتحدث عن أخيه الكبير الشيوعي جاسم بإكبار ومحبة بالغة واعتراف بالجميل،بالرغم من المشاعر غير الودية التي أفصح عنها في الكتاب لكل ما هو شيوعي كتباً ومفاهيم وناساً.....إلخ.

ويمتد حديث السياسة في كتابه إلى نفر من الساسة الأعلام في العراق،على أنّ حديثه عنهم غير بعيد عن(الكتاب) فهو القضية المركزية في حياته،وأزعم أنها التفاتات بارعة من الرجب ومفيدة للمؤرخ في اكتشاف الوجه الآخر غير المعروف وغير السياسي في حياة هؤلاء: ((وعندما سافر الأمير عبد الإله ونوري السعيد إلى أمريكا زارا جامعة برنستون في نيو جرسي،وقدّمت إليهما هذه الجامعة هدية هي جملة نسخ من كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ، الذي عني بتحقيقه ونشره الدكتور فيليب حتي في نيويورك،وكان هذا الكتاب الجليل من أحبّ الكتب إلى نوري السعيد،إذ كان كثيراً ما يشتري مني قبل أسفاره نسخاً منه ليقدّمها هدايا إلى أصدقائه ومعارفه)) (ص١٤٣).

ويبقى الجانب الأهم في هذه المقاربات ما تعلق منها ب (الرقابة)،العضلة التي أحسّ بوطأتها مع سقوط الملكية وتأزّم الأوضاع السياسية والعسكرية في البلد،عالج الرقابة من زاويتين:المفهوم والممارسة،ففي فحصه المفهوم أكّد أنّ جوهر الرقابة واحد رغم اختلاف المظاهر زماناً ومكاناً ؛فهو مبني على مصادرة الحرية والإستهانة بإنجازات العقل،واستعباد المقدرات البشرية،واستغفال الذكاء الإنساني لغايات تتعلق بمصالح ضيقة لأفراد أو فئات معدودة إمتلكوا السلطة في لحظة ما،إنه يعي تماماً أنّ: ((الرقيب هو هو لم يتغيّر منذ الحكم العثماني عندما كان يسمّى (المكتوبجي)..... بالرغم من تقدّم الزمن ونضوج العقل ونمو الحريات)) (ص٢١٧)، وقد ضاق ذرعاً بالحالة ومن يقومون بتنفيذ إجراءاتها في صفحات كتابه يتحدث عن أخيه العقيدة: ((فأتفه سبب كان يكفي لمنع الكتاب،ولأتفه سبب كنت أنام في دائرة التحقيقات الجنائية لكي يأتي الأمر بتقرير مصيري من أجل لا شيء أو بمجرد اشتباه)).

– ٩ –

(وجوه ومواقف)

كانت الأحداث السياسية كالحروب والانقلابات تلقي بظلالها السلبية على التسويق والتوزيع فتنشط المضاربات والاحتكارات، فذكر أدوار اليهود العراقيين في مثل تلك الأزمات في البيع والشراء والاحتكار فضلاً عن وكالاتهم في توزيع المجلات ونشرها،فاستذكر أليا هو عزرا دنكور صاحب المطبعة الحديثة وعبودي عزرا منشي وأبا حمرة الموزع وساسون بقال وإسحاق معلم نسيم،وتطرق إلى بيع المخطوطات ((خارج العراق وكان أكثر من يشتريها من الأجانب أحد يهود العراق المهاجرين إلى أمريكا واسمه أس يهودا،وقد جمع ما يقارب العشرين ألف مخطوطة من مختلف أنحاء العالم ولا سيما من العراق.....وقد باع.... هذه المخطوطات بعد ذلك لمكتبة جامعة برنستون))(ص١٠٤).

ومما يحسب لهذه المذكرات أيضاً أنها احتوت على صفحات نادرة وطريفة عن الحياة الاجتماعية في عراق الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين جديرة بالنظر والدراسة،فانقلاب بكر صدقي – مثلاً– عام ١٩٣٦ حدث سياسي معروف في تاريخ العراق الحديث،ولكن غير المعروف ما أفرزه من ظواهر إلتقطتها عدسة قاسم الرجب بالمشاهدة اليومية،فقد ((ركدت الأسواق وخيّم الكساد عليها من جرّاء ما حصل من اغتيالات سياسية وعدم استقرار،وكنت أشاهد سوق السراي وقد امتلأ بالواقصات الأجنبيات الشقراوات المتهتكات وهن ذاهبات إلى سوق الصاغة ليشترين بعض المصوغات الذهبية والفضية، يرسلنها إلى ذويهنّ وعشاقهن في لبنان وفرنسا وغيرهما،وكنت أراهن في دائرة البريد المركزي وقد تزاحمن على شباك الحوالات لإرسال ما جمعنه من النقود من أهل بغداد الذين لم يعهدوا مثلهن ولم يروا نظيراً لهن من قبل)) (ص١٣٠).

– ١٠ –

(عبق الخواتيم)

كمن يقف معترفاً في نهاية المطاف ليعلن شهادته على الملأ و أمام التاريخ وهو يلقي النظرة الأخيرة على منعطفات رحلته الحياتية المنصرمة،يختار أن ينهي الرجب مذكراته بهذا التصريح الملتزم الذي يليق بالبيئة التي ولد ودرج بين ظهرانيها: ((كنت مستقيماً في عملي،بعيداً عن كل ما يغضب الله تعالى،فلم أدخّن ولم أشرب ولم أرتكب منكراً قطّ،ولم يشغلني شاغل عن تربية أولادي والمطالعة الكثيرة والإخلاص في توسيع عملي وخدمة المكتبة بكل سبيل)) (ص٢٦٥).وغير بعيد عن هذا الجو المحافظ يختار المحقق أن يسدل الستار على هذه السيرة العصامية المعطاء بالمشهد الآتي المكتنز بالدلالات الروحانية: ((شيّع بموكب كبير، وصلّي عليه في جامع الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان،ودفن في مقبرته،بجوار صديقه الخطاط الشهير هاشم محمد البغدادي قرب مرقد الشيخ أبي بكر الشبلي، رحمه الله رحمة واسعة)) (ص٢٢).

(مذكرات قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى)، الدار العربية للموسوعات،ط1 بيروت 1429هج-2009

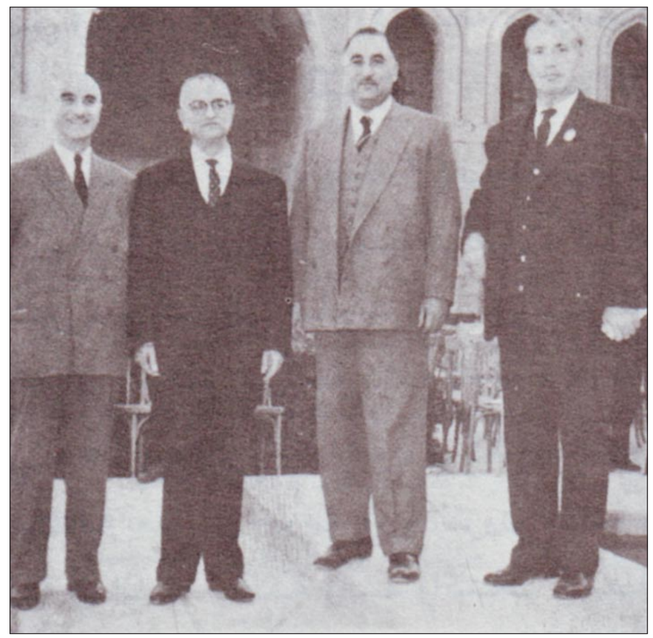

في المدرسة المستنصرية: ناجي معروف، الرجب، كوركيس عواد، ميخائيل عواد

شخصيات عاصرتها

قاسم محمد الرجب.. العصامي

الورّاق العراقي.. الذي صنع له اسما لامعا في عالم المكتبات

ع د. حسين امين
مؤرخ عراقي كبير

(الورّاق) هو تاجر الكتب الذي له معرفة واسعة بعناوين ومواضيع الكتب، وسوق الوراقين في بغداد في العصر العباسي يعني سوق المكتبات. هذا الانسان الذي يمثل الرجل العصامي الذي شاهدناه مفترشا بعض الكتب على الارض قرب مكتبة الحاج نعمان الاعظمي والذي عطف عليه فاتخذه عاملا في مكتبته بأجر خمسين فلسا في اليوم الواحد، وامتاز هذا الطفل الذي لم يكمل الدراسة الابتدائية بالنشاط والذكاء وتمكن من جمع بعض المال فاستأجر دكانا في سوق المكتبات واتخذه مكتبة صغيرة احتوت بعض الكتب وجعل اسمها مكتبة المثنى..

وصار ينتقل من مكان الى آخر، حتى استقر به الحال في المكان الحالي لمكتبة المثنى في بنايتها الواسعة التي كانت اصلا بيتا للدكتور صائب شوكت عميد كلية الطب الاسبق والطبيب الجراح المشهور.

امتاز قاسم الرجل بخبرته الواسعة بالكتب ومعرفة اهميتها ونجح النجاح الباهر بأن اصبح من اهم تجار الكتب، وعلى سبيل المثال فان هذا الرجل عندما كان يأتي الى مصر وكنت ايامها في مرحلتي (الماجستير والدكتوراه) فان سوق الكتب تنتعش في القاهرة والاسكندرية وكان كثيرا ما يتردد على مكتبة قديمة في الاسكندرية في مكان يعرف بزاوية الاعرج بالقرب من مسجد سيدي (ابو العباس المرسي) فيشتري منها مئات الكتب القديمة وكان يصحبه في كثير من رحلاته المرحوم كوركيس عواد الذي كان ايامها امين مكتبة المتحف العراقي.

وكنت معه في بعض نشاطاته التجارية عندما اقدم على شراء مكتبات خاصة لعلماء مصريين كبار، وكان اصحاب المكتبات في الاسكندرية كثيرا ما يتوجهون اليّ بالسؤال عن قاسم الرجب ومتى يأتي، لانه كما قلت عند مجيئه الى مصر تنشط حركة بيع وشراء الكتب وبذلك اصبح قاسم الرجب عنوانا كبيرا لاصحاب المكتبات المصرية والناشرين هناك.

خدم قاسم الرجب المكتبة العربية حين اقدم على طباعة نفائس الكتب بالاوفسيت وكانت تلك الكتب غير متوفرة لنا وبذلك يسّر لباحث العراقي والعرب كتبا نادرة كانت صعبة المنال علينا. ومن اعماله الثقافية اصداره عددا من نشرات جميلة اسماها (المكتبة) فيها اخبار الكتب الصادرة في العالمين العربي والاسلامي، ومقالات مختصرة لبعض الباحثين ونقد بناء لبعض الكتب واخبار الادباء والعلماء وكانت توزع مجانا في مكتبة المثنى.

كانت مكتبة المثنى في شارع المتنبي ملتقى لعدد من العلماء والادباء والباحثين، يتذاكرون ويناقشون اهم النشاطات الثقافية في العراق والعالم العربي واذكر من الذين كانوا يحضرون تلك اللقاءات الدكتور مصطفى جواد والاستاذ المؤرخ عباس العزاوي والاستاذ كوركيس عواد والاستاذ احمد حامد الصراف والاستاذ مهدي القزاز والمحامي عبد الرزاق شبيب والاستاذ يوسف مسكوني والاستاذ فؤاد عباس والدكتور احمد سوسة وغيرهم من اعلام الادب والثقافة والعلوم، وكان والحق مجمع هؤلاء في مكتبة المثنى مجمعا ثقافيا كنت احضره في اكثر الاوقات واستفدت من تلك اللقاءات الشيء الكثير.

وكان له نشاط ثقافي آخر هو تصنيفه فهارس لنوادر الكتب في مكتبة المثنى، ونشره كتاب (تاج التراجم في طبقات الحنفية) لابن قطلو بغا سنة ١٩٦٢، وكان له نشاط واسع في العديد من الاقطار العربية وهو كثير السفر الى مصر وسوريا ولبنان لاجراء اتصالات مع ناشري الكتب واصحاب المكتبات.

والمعروف ان السيد قاسم الرجب، كان قد ولد في الاعظمية في بيت متواضع ومن عائلة تكاد تكون فقيرة ولد سنة ١٩١٧ وله اخوان جاسم محمد الرجب وهو رجل مثقف ثقافة جيدة واعتقد انه عمل في سلك التعليم، وهاشم محمد الرجب وهو من حافظي المقام العراقي وقدم نشاطات فنية خاصة بالتراث الغنائي العراقي، واشهر ماقدم برنامجه في تلفزيون بغداد (كهوة عزاوي) وله مؤلفات عديدة تدور حول الغناء العراقي وبخاصة المقام العراقي.

واخيرا فان قاسم الرجب وسع اعماله المكتبية وافتتح مكتبة خرى في بناية مرجان في ساحة الجمهورية بباب الشرقي وكان ولده (محمد) هو الذي يشرف على تلك المكتبة، ونجح قاسم الرجب في حياته بفضل نشاطه وهمته فامتلك العقارات وصار من كبار بل من اشهر تجار الكتب والقرطاسية، وفي ١/٤/١٩٧٤ انتقل الى رحمة الله في بيروت ونقل جثمانه الى بغداد ودفن في مقبرة الامام الاعظم بالاعظمية.

تلك مقتطفات من سيرة انسان عصامي بدأ حياته بأجر قدره خمسون فلسا يوميا وبهمته ونشاطه وعزيمته نجح في حياته النجح الكبير فنفع نفسه واهله وخدم الثقافة العربية وازدهرت في ايامه سوق المكتبات في العراق وبعض الدول العربية، ارجو من شبابنا ان يحذو حذو هذا العراقي الاصيل في تطوير حياتهم والعمل بجد ونشاط من اجل مستقبل افضل.

قاسم محمد الرجب.. شيخ الكتبيين العراقيين

ع مازن لطيف

تعود علاقتي بشارع المتنبي منذ عام ١٩٩٠ حيث كنت طالباً في الجامعة، ومازال حاضراً في عقلي وقلبي وعلى لساني ذلك المكان الذي مكث يشرأب الى بغداد المثقفة الأولى، وبإعتباري من وسط هذا الشارع وقريباً على خفاياه فقد كانت وماتزال الى العديد من العلاقات مع باعة الكتب و الإدباء والمثقفين ، واشعر بأن الكتاب يروي عطشي دائماً ، شكل هذا المركز الثقافي وشكل بؤرة لتلاقح الأفكار بين قارئ وكتاب وبين قارئ وقارئ أومقرئ. وهكذا امسى ولوج المكان والشوق لي ضرب من الهوس والإدمان .

مكتبة " المثنى " كانت مركز استقطاب لعشاق الكلمة والمعرفة وصار محجتهم للالتقاء والحوار واقتناء الكتب والدوريات المختلفة.. اكتسبت مكتبة " المثنى " كونها معلم ثقافي وتراثي بفضل صاحبها ومؤسسها قاسم محمد الرجب خصوصية ثقافية وحضارية تؤهله لمثل هذه المكانة.

قاسم محمد الرجب (١٩١٩ــ١٩٧٤) صاحب مكتبة المثنى ببغداد ، ذاع صيته وشهرته العراق والعالم العربي ، في الكتاب الصادر حديثاً" مذكرات قاسم محمد الرجب " الصادر عن الدار العربية للموسوعات ٢٠٠٩ ، جمعها وعلق عليها د. عماد عبد السلام رؤوف ، يطالع القارىء في هذه الذكرات كيف بدأ حياته في عالم الكتب واصبح اشهر كتبي عرفه العراق .

يذكر الرجب "رحمه الله" ان الكثير من الأدباء والعلماء والشعراء والسياسيين كانوا يترددون الى سوق السراي أمثال جميل صدقي الزهاوي ، اسماعيل الواعظ ، نوري السعيد ، مصطفى علي ، وغيرهم ، وكان اكبر زبون هم المؤرخ عباس العزاوي المحامي ، حيث كان يتردد ٥ مرات يومياً فلا يفوته اي كتاب سواء كان مطبوعاً أو مخطوطاً .. ويذكر الرجب ان المثقف البغدادي إذا افلس باع مكتبته ، واذا تزوج او اراد شراء دار له ، باع مكتبته ، ومن الشخصيات اللذين باعوا مكتباتهم وهم احياء : رفائيل بطي ، ابراهيم صالح شكر ، محمود النقيب الكيلاني ، ناظم الغزالي وغيرهم . وعن اهمية وتسويق الكتب في العراق يذكر الرجب ان العراق هم احسن سوق لبيع الكتب واعظمها اذا ماقيس بسائر الاقطار العربية الاخرى ، حيث ان الكتاب العربي عند طبعه في اي بلد فأن اسواق العراق تستهلك ٧٠٪ مما طبع منه وحتى المجلات العربية ايضا.. كانت الكتب المدرسية تشكل مورداً كبيرا للباعة واصحاب المكتبات قبل ان يؤوم الكتاب المدرسي سنة ١٩٣٣ حيث تبنت وزارة المعارف طبعها وتوزيعها ، وعن تجارة المخطوطات يذكر الرجب ان المخطوطات تصل الى بغداد من كربلاء والنجف وهي اجود مايعرض من المخطوطات وأندرها ، ويعتبر العراق من افقر بلاد العالم قاطبة بالمخطوطات اذا ماقيس بمصر والهند ودمشق واستنبول .

بدأ الرجب استقلاليته في عالم الكتب عام ١٩٣٦ عندما ترك العمل عند نعمان الاعظمي حيث كان يعمل صانعاً عنده ، وقد امتلك خبرة جيدة في الكتاب فأسس مكتبة اسمها مكتبة " المعرى" لكنه استدلها بأسم " المثنى " بناءاً على تأثير صديقه عبد الستار القره غولي.. اصبحت مكتبة " المثنى " اهم مكتبة عراقية وعربية كنوها طبعت كنوز ونفائس الكتب النادرة فقد ميز الرجب في تعامله مع الكتب النادرة حيث قام بطبع نفائس الكتب والمطبوعة في اوربا او غيرها بطريقة الاوفسيت ، فكان أول كتاب يطبعه هو (عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة) تأليف شهراب المعروف بأبن سرابيون ، وهو من سلسلة المكتبة الجغرافية التاريخية التي قام بنشرها المستشرق هانس فون مزك سنة ١٩٢٩ والكتاب الثاني كان (صورة الارض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار) لمحمد بن موسى الخوارزمي .. وهكذا استمر الرجب بطبع الكتب النادرة..ومن المفارقات ان مئات الكتب والنفائس قد حرقت في مكتبة المثنى اثناء الحريق الذي تعرضت له المكتبة في صبيحة يوم الجمعة ١٩٩٩/٨/٢٠ بحيث ادمت قلوبنا ونحن ننظر الى الكتبة بشموخها وتاريخها ونفائسها تلتهما النار التي بقيت ايام مستمرة رغم اطفاءها لكن الرجب كان قد رحل عن الدنيا ولم ير مصير المكتبة .

في مذكرات الرجب التي نشرت قبل حوالي نصف قرن على شكل حلقات في مجلة " المكتبة " التي كان يصدرها قسم محمد الرجب وجمعت الان فيها قيمة معرفية وتاريخية ، وفيها مواقف وتجارب يمكن ان يستفيد منها اصحاب المكتبات وباعة الكتب الان فقد كان الرجب خير نموذج يقتدى به.

كتب احد الادباء العراقيين: لو انصف العراقيون تاريخهم الفكري، لأقاموا تماثيل ثلاثة رواد عراقيين، وهم الزهاوي الشاعر الفيلسوف لادخاله الأفكار الحديثة الى العقل العراقي، ورفائيل بطي رائد الصحافة الحديثة، وقاسم محمد الرجب الذي جعل مطبوعات الخافقين في متناول العراقيين.

ولعل الكاتب والصحافي مشكور الاسدي بما كتبه اراد من وضعه اسم قاسم الرجب في طليعة الاسماء الرائدة لليقظة الفكرية في العراق الحديث، لأدراكه العميق بما قدمته مكتبة المثنى ببغداد من خدمات جليلة للحركة الثقافة، والجهود الكبيرة التي بذلها صاحبها في تذليل الصعوبات امام تجارة الطبوعات مما دفع خير الدين الزركلي الى ان يخلد اسم الرجب في موسوعته الذائعة (الاعلام).

مجلة (المكتبة) ..

سيرة رائد ومكتبة ذائعة

ع رفعة عبد الرزاق محمد

ومن المفيد التذكير بان مشكور الاسدي الاديب العراقي المنسي، كان صحفياً ناجحاً ومراسلاً ادبياً للعديد من الصحف والمجلات العربية وقد اثنى الدكتور طه حسين على جهوده في احاديثه التي ذكرها صهره الدكتور الزيات في كتابه المانع (ما بعد الايام).

قاسم محمد الرجب

ولم تكن تجارة الكتب في العراق، قبل ان يقبل قاسم محمد الرجب على تنظيمها، الا عملية تجارية صرفة تخضع لمتطلبات السوق، وقد ذكر الرجب في مذكراته المعدة للنشر نماذج عديدة على ذلك فضلاً عن كونها تجارة غير رائجة لضعف المستوى الثقافي وتفشي الامية في مطلع القرن الماضي، وقد كان بيع الكتب يجري داخل المساجد ومدارس العلم، ولا نعلم الا النزر اليسير، حتى اذا أقبل القرن العشرون وبدأت الافكار الحديثة تدخل العراق بعد انبثاق الحركة الدستورية وبعض مظاهر الحريات العامة، بدأت عملية تجارة المبطوعات تأخذ مساراً متقدماً.

اسماء اولى

ومن الاسماء الاولى التي عملت في تجارة الكتب قبل ظهور المكتبات الشهيرة ببغداد، نذكر اسماء الكتبيين: عبد اللطيف ثنيان ومحمد رشيد السعدي وداود صليوا وعبد الامير الحيدري والملا خضر، ثم تأسست المكتبة العربية لصاحبها نعمان الاعظمي سنة ١٩٠٨ وتلاها افتتاح المكتبة العصرية لصاحبها محمود حلمي قبل الحرب العالمية الاولى ثم ظهرت قائمة لكتبيين عراقيين، جديرة بالتنويه والتحقيق، ضمت فيما ضمت: شمس الدين الحيدري، محمد جواد حيدر، عبد الكريم زاهد، عبد الكريم خضر، حسين الفلفي، كاظم الحيدري، ابراهيم الكتبي وغيرهم غير ان اسم قاسم محمد الرجب الذي افتتح مكتبة صغيرة في سوق السراي سنة ١٩٣٥، اخذ شهرة ذائعة في سنوات قليلة ليصبح الاسم الاول بين الكتبيين العرب، بله العراقيين.

ولد قاسم محمد الرجب العبيدي الاعظمي سنة ١٩١٧ في الاعظمية وبها ونشأ واكمل دراسته الابتدائية ولم يواصل الدراسة وتفرغ للعمل منذ يفاعته لمساعدة اسرته على مواجهة مشاق الحياة وعمل في مكتبه قريب له، وهو الكتبي العراقي الرائد نعمان الاعظمي صاحب المكتبة العربية ببغداد (١٨٨٨-١٩٥٣) وكانت هذه المكتبة اشهر دور الكتب ومنتدى لرجال الفكر والعلم والادب، كما يعد نعمان الاعظمي من اوائل الناشرين العراقيين ومن اشهر مطبوعاته (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي، و(الحوادث الجامعة) الذي نسبه محققه مصطفى جواد الى ابن الفوطي ثم تراجع عنه فيما بعد. وعلى الرغم من الفوائد الكبيرة التي جناها الرجب من عمله في هذه المكتبة اذ تعلم اسرار الكتبيين والناشرين، فقد عانى قاسم الرجب شظف العيش ومشاق الحياة، وقد قدم في مذكراته صورة طريفة لاستاذه نعمان الاعظمي ووسائله الطريفة في العمل الكتبي، غير ان المعية الرجب وعصاميته، وضحت منذ البداية، فقد برع في عمله وكسب خبرة واسعة في تجارة الكتب واحوالها.

وافتتح الرجب مكتبة صغيرة في وسط سوق السراي- سوق الكتبيين قبل انتقالتهم الى شارع المتنبي في منتصف الاربعينيات من القرن المنصرم- سماها (مكتبة المعري) سنة ١٩٣٥، ثم غير اسمها الى (مكتبة المثنى) بعد ان نصحه صديقه عبد الستار القره غولي- وهو من رواد اليقظة الفكرية- ليحصل على تخويل توزيع مطبوعات نادي المثنى بن حارثة. وفي غضون سنوات قليلة نمت مكتبة المثنى واتصل صاحبها بدور النشر العربية الكبيرة، وتوسعت خبرته وذاع امره بين كبار الكتبيين بعد ان برز العراقيين منهم، فتراجعت المكتبات الكبيرة الاخرى امام نشاطه واخذت منشورات مكتبة المثنى- وقسم كبير منها يطبع في القاهرة وبيروت- تنتشر بصورة مدهشة ولسعة نشاطها، انتقلت الى بناية كبيرة في وسط شارع المتنبي في النصف الثاني من الخمسينيات، كما حصلت على حق توزيع الصحف والمجلات العربية بعد انتكاسة المكتبة العصرية وتعرض صاحبها الى ازمة مالية. وفي اول من نيسان سنة ١٩٧٤ توفي في بيروت قاسم محمد الرجب اثر نوبة قلبية مفاجئة، بعد مسيرة طويلة من العطاء والبذل. وبقيت مكتبة المثنى بعهدة ابنائه على الرغم من السنوات العجاف التي المت بالثقافة العراقية في العهد الديكتاتوري وتراجع حركة الكتاب في العراق بعد تأسيس ما سمي بالدار الوطنية التي لعبت دوراً في ضعف الحركة الفكرية وضعف الحركة الكتبية في العراق.

حريق المثنى

وحاقت بالمكتبة نكبة جسيمة ففي صبيحة يوم الجمعة ٢٠ آب ١٩٩٩، شب حريق هائل في المكتبة اتى على كل شيء في المكتبة ولم يبق فيها ورقة صغيرة، ولم تعرف اسباب الحريق الى يومنا هذا، مع ان الدفاع المدني ذكر يومئذ ان الحريق وقع بفعل فاعل (!!) وبقي اسم الجاني مجهولاً بعد ان فقدنا مكتبة عامرة باقدم المطبوعات العربية وانفسها مما نشر في مغارب الارض ومشارقها.

وتضمنت ابواب المحلة المختلفة الكثير من الفوائد التاريخية وحركة الكتاب العربي في كل مكان، واخبار المخطوطات وخزائنها وفهارسها. ومن هذه الابواب: مطالعات في الكتب، اخبار الادب والادباء، معرض الكتاب، رسائل القراء، اخبار ثقافية، صدر حديثاً، كتب جديدة. غير ان اطرف ما نشرته هذه المجلة واهمها حلقات كتبها قاسم الرجب باسم (مذكراتي في سوق السراي) ضمنها ذكرياته عن تجارة الكتب واحوال الكتاب والمؤلفين منذ ان كان عاملاً في المكتبة العربية لصاحبها سلمان الاعظمي، وقد نشر عشرين حلقة من هذه المذكرات ونشر بعض الحلقات في جريدة (البلد) البغدادية لصاحبها عبد القادر البراك الذي اصبح محرراً لمجلة (المكتبة) بعد مهدي القزاز وقد اعدت اسرة الرجب هذه المذكرات للنشر ثانية.

شذرات من مذكرات الرجب

(الحلقة الاولى): صلتي بسوق السراي تعود الى سنة ١٩٣٠-١٩٣١ يوم تركت المدرسة واتصلت به وكان عمري اثنتي عشرة سنة عندما اشتغلت عاملاً صغيراً بالمكتبة العربية لصاحبها نعمان الاعظمي، وكنت يومذاك في الصف السادس من المدرسة الابتدائية وكان مرتبي الشهري ٦٠٠ فلس ولم اكن قد رايت بغداد كثيراً لانني كنت من سكنة الاعظمية فكنت اراها بالسنة مرة او مرتين وفي ايام الاعياد فقط فلما اتصلت بالمكتبة وبالسوق كنت اعجب لما تحتويه من كتب اذ لم اكن قد رايت مكتبة من قبل. كان سوق السراي آنذاك زاخراً بالمكاتب الصغيرة منها والكبيرة امثال المكتبة الوطنية لعبد الحميد زاهد والمكتبة الاهلية لعبد الامير الحيدري والمكتبة العصرية لمحمود حلمي ومكتبة الشرق لعبد الكريم خضر.. وهناك مكتبات صغيرة منتشرة من اول السوق الى آخره ومنهم من يعرض بضاعته على الرصيف امثال حسين الفلفلي واحمد كاظمية والحاج محمد وسامح اسماعيل ومن المكتبات الصغيرة التي ما زالت صغيرة حتى اليوم مكتبة التجدد لحقي بكر صدقي ومكتبة الشبيبة لرشيد عبد الجليل والمكتبة الحديثة للحاج محمد ومكتبة الزوراء لحسين الفلفلي اذ لم تتقدم هذه المكتبات بالرغم من وجود طاقات من الذكاء عند البعض منهم ومن حسن المعاملة عند الاخرين.

عباس العزاوي اهم زبون

وكان يتردد الى السوق الكثير من العلماء والادباء والشعراء امثال جميل صدقي الزهاوي الذي كان يكتري الروايات باستمرار من نعمان الاعظمي وغيره فيدفع له اجرة عن قراءة كل مجموعة منها روبية واحدة أي ما يساوي اليوم ٧٥ فلساً وطه الراوي الذي كان اكبر مشجع ومرغب للكتاب في جميع مجالسه الرسمية والبيتية ونوري السعيد ويوسف العظا وبهاء الدين الكريم الامين، خضر عباس الصالحي، احمد حامد الشرقي، سليم المعروف، يوسف سعيد، فاروق عمر فوزي، خالد محسن اسماعيل، صفاء خلوصي، ناجي محفوظ، عبد العزيز الدوري، جميل احمد الكاظمي (الاسماء وردت هنا بدون ترتيب معين) ومن الكتاب العرب: محمد سعيد العريان، حسين مؤنس، فؤاد افرام البستاني، عبد اللطيف حمزة، شكري فيصل، وغيرهم.

ومما يضيف الى الاهمية التاريخية لمكتبة المثنى ببغداد، ما يلي:

١- بدأت المكتبة منذ اوائل الستينيات من القرن الماضي مشروعها الكبير بأحياء المطبوعات العربية النادرة وهذا المشروع من اهم المشاريع الثقافية التي اضطلعت بها جهات غير رسمية فقد نهضت المكتبة الى اعادة طبع نوادر الكتب العربية ونفائسها عن نسخها الاصلية بالاوفست لتيسيرها الى طلاب الثقافة والمعرفة ومن هذه النوادر، كتاب البدء والتاريخ لأبي زيد البلخي نسبة وهو لمطهر بن طاهر المقدسي، اعتنى بنشره المستشرق الفرنسي كليمان هوار بباريس سنة ١٨٩٩ وتاريخ الحكماء للقفطي وقد طبع في ليبزك سنة ١٩٠٤ وكتاب النقط والضبط لابن القيسراني وطبع في ليدن سنة ١٨٦٥. وكتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ، الذي حققه فيليب حتي وطبعه في نيويورك ومن الطريف ذكره ان قاسم الرجب ذكر في مذكراته ان نوري السعيد اقتنى الكثير من نسخ الكتب ووزعها بين اصدقائه كما يضمه الكتاب من تجارب انسانية ومشاهد تاريخية نادرة.

٢- اصدار مجلة (المكتبة) سنتحدث عنها بعد قليل.

٣-المجلس الادبي الكبير في الفرع الرئيسي للمكتبة في شارع المتنبي وقد حضره كبار الكتاب والادباء والعلماء والوجوه الشهيرة في المجتمع، وقد بقي هذا المجلس الى السنوات الاخيرة من حياة المكتبة.

٤- وكتب الرجب مذكراته ومشاهداته سماها (مذكراتي في سوق السراي) وهي صفحات مطوية وطريفة من تاريخ الفكر العراقي الحديث، نشر القسم الكبير منها في مجلته (المكتبة) وقد اعدت اخيراً للنشر، وسنقتبس بعد قليل بعضاً من هذه المذكرات.

مجلة المكتبة

اصدر قاسم محمد الرجب مجلة باسم (المكتبة) تعنى في بدء امرها باخبار الكتب ومؤلفيها، وقد صدر العدد الاول منها في آيار ١٩٦٠ وصدر عددها الاخير سنة ١٩٧٢. وسرعان ما تحولت هذه المجلة من نشرة مكتبية الى مجلة ادبية وعلمية قيمة وقد حملت الاعداد الاولى من المجلة عبارة: قائمة شهرية تصدرها المثنى لصاحبها قاسم محمد الرجب، ثم تغيرت هذه العبارة الى: المكتبة مجلة الكتب والكتاب، والمصحح المرحوم مهدي القزاز رئيساً لتحريرها والمحامي عبد الكريم جواد مديراً مسؤولاً لها، وتطبع في مطبعة شفيق.

وقد اسهم في تحرير هذه المجلة الرائدة في بابها نخبة من كبار الكتاب والمثقفين في العراق وخارجه، واكثرهم لهم صلة وثيقة بصاحبها ويحضر مجلسه الادبي الرائع في باحة المكتبة التي كانت تشغل داراً تراثية كبيرة في منتصف شارع المتنبي ولم تزل قائمة، ومن هؤلاء: مصطفى جواد، احمد حامد الصراف، كوركيس عواد، صالح احمد العلي، يوسف عز الدين، محمود العبطة، عبد القادر البراك، سلمان هادي الطعمة، فؤاد جميل، جليل العطية، محمد هادي الاميني، علي جواد الطاهر، علاء الدين خروفة، مشكور الاسدي، حكمت توماشي، عبد الكريم الامين، خضر عباس الصالحي، احمد حامد الشرقي، سليم المعروف، يوسف سعيد، فاروق عمر فوزي، خالد محسن اسماعيل، صفاء خلوصي، ناجي محفوظ، عبد العزيز الدوري، جميل احمد الكاظمي (الاسماء وردت هنا بدون ترتيب معين) ومن الكتاب العرب: محمد سعيد العريان، حسين مؤنس، فؤاد افرام البستاني، عبد اللطيف حمزة، شكري فيصل، وغيرهم.

يبقى سنوات دون ان يباع اذ لم يكن هناك يومذاك من يتسوق الكتاب.

موا..

(الحلقة الرابعة).. حتى ظهرت مكتبة المتحف العراقي في بغداد وقد شاهدتها سنة ١٩٣٥ فكانت عبارة عن دولاب صغير فيه بعض الاجزاء من كتب باللغة العربية والانجليزية لا تزيد على مائة مجلد فلما عين كوركيس عواد فيها ملاحظاً اهتم بتنميتها واخذ يشتري اليها كل ما يتمكن من الحصول عليه من المصادر والكتب النادرة بمختلف اللغات وكان مدير الآثار العامة ساطع الحصري فبذل مجهوداً كبيراً وعزز رغبة كوركيس عواد، فتظافرت الجهود فنمت المكتبة حتى اصبحت الان اكبر وانظم مكتبة في العراق وكان ساطع الحصري يفاصل عند شراء الكتب من أي كان فاذكر مرة انني عرضت عليه كتاب اسمه (نزهة الزمن في تاريخ اليمن) للحجة الحسن طبعة هامبورغ وكان قليل الصفحات وثمنه مرتفعاً جداً فطلب مني تنزيل ثمنه وارسل لي مذكرة كتب عليها بخطه (موا...) ولم يتم الكلمة، وبما انني اعرف بانه اذا لم يشتر هذا الكتاب من قبل مكتبة المتحف فانه سوف يبور ولا يتصرف تنازلت عن ذلك السعر فاكمل الحصري بعد ذلك كلمة (موافق).. وكان مدير المتحف عبد الرزاق لطفي وهو لا يقل عن ساطع بما قام به من خدمات لهذه المكتبة وهي تنظيم وتنسيق واهتمام بما تحتاجه من كافة متطلباتها.

فالح الصيهود

وكان من عملاء سوق السراي ولا سيما عملاء نعمان الاعظمي زبون من اكابر شيوخ العمارة ونائب في مجلس الامة هو الشيخ فالح الصيهود وكان عند انعقاد دورة المجلس يسكن بغداد ويتردد على السوق فيطلب من عندنا كل الكتب التي تبحث في الامور الحسنة كالقصص والملح والمناظرات مثل رجوع الشيخ الى صباه والايضاح في علم النكاح واخبار النساء لابن الجوزية ومحاضرات الادباء للراغب الاصبهاني وزهر الربيع وغير ذلك من الكتب وكان يقتني الكتب دون مساومة وربما دفع ثمن الكتاب مضاعفاً باختياره، فمثلاً كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة يتكون من اربعة مجلدات وفي المجلد الرابع منه كتاب خاص بالنساء ولذا فانه يشتري الكتاب كاملاً ويدفع ثمنه، الا انه يترك المجلدات الاخرى ويكتفي بالرابع.

وانكر ان عبد الستار القره غولي رحمه الله كان يحتفظ في مكتبه بنسخة مخطوطة من كتاب رشف الزلال من السحر الحلال للسيوطي، وهو يتألف من عشرين مقامة كتبت على لسان عشرين علماً دخلوا على زوجاتهم في عيد الفطر، فوصف كل واحد منهم ما بان له من ذلك حسب علمه وعمله وفنه فقدمه الى نعمان الاعظمي الذي استنسخ منه نسخة اعطاها الى القره غولي وباع الاصل للشيخ فالح الصيهود وعرض القره غولي النسخة التي اخذها الى احد كبار الضباط هو عبد المطلب الامين، فاعطاها الى صبري الخطاط الذي نسخ بخطه الجميل منها نسختين اعطاني احداها وما زلت احتفظ بها الى يومنا هذا.

عبد الكريم خضر

كان سوق السراي يتأثر بالروح الوطنية المتأججة بسبب فلسطين ووعد بلفور والثورة في كافة المدن الفلسطينية اشد التاثر، وكان يهيئ السوق للمظاهرات والاضرابات ويحثهم عليها عبد الكريم خضر صاحب مكتبة الشرق فكان يحرضنا جميعاً على غلق مكتباتنا فاذا ما تاخر احدهم ذهب اليه مسرعاً واذا ما لاحظ ان السوق يتباطأ في غلق ابوابه فانه ينزل من مكتبته ويمر على المكتبات واحدة بعد الاخرى وخلفه بعض الشبان والصبيان وهو ينشد هذه الكلمات المؤثرة:

كان سوق السراي يتأثر بالروح الوطنية المتأججة بسبب فلسطين ووعد بلفور والثورة في كافة المدن الفلسطينية اشد التاثر، وكان يهيئ السوق للمظاهرات والاضرابات ويحثهم عليها عبد الكريم خضر صاحب مكتبة الشرق فكان يحرضنا جميعاً على غلق مكتباتنا فاذا ما تاخر احدهم ذهب اليه مسرعاً واذا ما لاحظ ان السوق يتباطأ في غلق ابوابه

قم من القبر حزينا يا امير المؤمنين

قتل الصهيون في القدس خيار المسلمين وكنا نرددها جميعاً بعده ونمشي خلفه، ولابد من امتثال امره، اذ كان مخلصاً صادقاً وهو لا ينفك يصف احوال العرب والمسلمين في فلسطين واذلالهم من قبل اليهود، واول من يتاثر به السوق هو غلق خان الشابندر للصاغة حالياً يسمعون الاناشيد.. وكنت اشاهد السيد حسون ابو الجبن لابساً الكفن مضرجاً بالدم في منظر مؤثر جداً يتقدم المظاهرة وهي تسير في شارع الرشيد.

امجد الزهاوي

ومن عملاء السوق الفضلاء العلامة الجليل والفقيه الكبير الشيخ امجد الزهاوي، وهو يقتني كتب الحديث والفقه والتفسير وقليلاً من كتب التاريخ والادب وعندما يختار الكتب ويريد شراءها فانه لا يساوم على اثمانها بالرغم من ان اصحاب المكتبات لا يقر لأسعارهم قرار وعند تمام موافقته على شراء صفقة الكتب فانه لا يدفع ثمنها حتى يلقن البائع صيغة البيع الشرعية كأن يقول: انني اشتريت منك كذا وكذا بمبلغ قدره كذا فهل وافقت؟ فيقول البائع: وافقت، فيدفع اليه الثمن ويقول له: هل قبضت؟ فيقول البائع: نعم قبضت، فيتسلم الكتب واذا اراد الشيخ امجد الدخول الى المكتبة فانه لن يدخلها قبل ان يخلع نعليه ويضعهما تحت ابطه وهو بهذا يتحاشى ان يدوس ورقة، اذ ربما كان في تلك الورقة لفظة الجلالة او أي اسم مقدس آخر او أي حرف يمكن ان يكون رسماً مقدساً..

مطبعة كردستان

وانكر ان شخصين من لواء السليمانية هما فرج الله زكي الكردي ومحيي الدين صبري الكردي غادرا العراق الى مصر فالتحقا بالجامع الازهر مجاورين فيه يطلبان العلم، فتخرجا فيه وفتح كل واحد منهما مكتبة ومطبعة سميا مطبعة كردستان العلمية ونشرا كثيراً من الكتب الاسلامية القيمة مثل مشكل الحديث لابن قتيبة وكثيراً من رسائل ابن تيمية ومؤلفات ابن القيم الجوزية وغير ذلك مما لم يسبق لاحد ان طبعه طبعة علمية صحيحة ونشره، ولكنهما بعد مدة اعتنقا البهائية واخذا ينشران الكتب والرسائل البهائية موافقة لمبادئهم ومؤيدة لها ونشرا خطب عبد البهاء في امريكا وغير ذلك، وكان يصدران مطبوعاتهما بعبارة (يا الهي بهاء) وهذا من المفارقات الغريبة التي قلما تقع.

الاعلان

كان رفائيل بطي من محبي مكتبة المثنى الناشئة ومشجعيها، وكان لا يمر يوم الا وزارها، واقترح علي يوما ان يحجز لي حقلاً صغيراً في جريدته (البلاد) ليقرض بعض الكتب التي تصل الي ولم اكن يومئذ اهتم بمثل هذا ولكن على قبول الاقتراح فهيأت بعض الكتب واعددتها للتقريض بناء على رغبته، وكان اول اعلان كتبه لي ونشره في جريدته اعلاناً عن كتاب صغير هو (النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم) لتقي الدين المقريزي بعد ان كان قد اعيد طبعه في القاهرة عن طبعة ليدن ولم اكن اتصور ان يكون لمثل هذا الاعلان البسيط كل هذه الاهمية وهذا الاثر فقد جئت -كعادتي- صباح يوم الى المكتبة واذا بي ارى جمعاً من الناس ينتظروني لافتح المكتبة وكلهم يبتغون شراء هذا الكتاب فبعت لهم وبقيت ابيع منه طول النهار حتى نفدت نسخه..

ورفائيل بطي اديب المعي وصحفي قدير وهو ممن يمتلك مكتبة صحفية فيها كل طريف، وقل من يهتم من الصحفيين بهذه الناحية الا انني رايت كلاً من كامل الجادرجي السياسي والصحفي لا يصل كتاب الا اقتناه وتوفيق السمعاني الذي فاقت مكتبته جميع المكتبات بما فيها من مختلف الكتب والمراجع بالعربية والسريانية وهو ممن يرتاد المكتبة العصرية ويجلس فيها ثم يقصد مكتبة المثنى وهو صديق الجميع.

مصطفى علي والاثري

وكان من عملاء المكتبة منذ ان فتحت الى سنة ١٩٥٣ مصطفى علي وزير العدل في حكومة عبد الكريم قاسم وقد توثقت صلتي به كثيراً اذ انه يعد من اصدقاء المكتبات ولا سيما مكتبة المثنى فهو لا يشتري كتاباً ما من أي جهة كانت اذا وجده في هذه المكتبة وهو ممن يهتم بالكتب الرصينة لا سيما كتب التراث العربي القديم الذي يميل اليه اكثر من غيره، وفي بيته مكتبة قيمة فيها امهات الكتب والمراجع ومن عادته انه لا يشتري الكتاب قبل ان يورقه بباب المكتبة، وهو معروف لدى الكثيرين بسرعة زعله لاتفه الاسباب وكنت اتحاشى كل ما يزعجه، ولكنني لم اوفق دائما، وهو عند الشراء لا يساوم كما يفعل صديقه بهجة الاثري الذي اذا اراد كتاب وهو نادر جداً وكان ثمنه ديناراً مثلاً فان من حسن حظ البائع اذا دفع له مائة فلس دون الجر والعر والكر والفر حتى يدع صاحب المكتبة يجري وراءه ملتمساً اعادة الكتاب اليه او دفع ثمنه، ولذا فقد زهد الاثري في شراء الكتب واكتفى بان يستعير ما يحتاج اليه منها للمراجعة من مكتبة المجمع العلمي العراقي ومن مكتبات اصدقائه ولذا فان مكتبته الخاصة لا تتناسب وشهرته الادبية واذا اراد كتاباً فانه يطلب -رغم غناه وسعة ذات يده- من البائع ان يتقاضى من الكتاب نسخاً من كتيب صغير له هو (مأساة الشاعر وضاح) او من كتبه المدرسية كالمدخل في الادب العربي او المجمل التي كان يقرر تدريسها قبل تأميم الكتاب المدرسي ومع ان مؤلفات العلامة الشيخ محمود شكري الالوسي اية في الجودة والاتقان، فانه يحلو للاثري ان يكتب على غلاف كل كتاب منها (حققه وهذبه محمد بهجة الاثري) ولم يكتف الاثري بذلك بل جعل من نفسه الوارث الشرعي الوحيد للعلامة الالوسي رحمه الله.

في بيروت ويجواره الدكتور احمد مطلوب وامامه عبد الرزاق شبيب

قاسم محمد الرجب وتجربته الرائدة في النشر

د. جليل العطية
باحث عراقي مقيم في باريس

لو شئنا ان نقرن اسم الرجب باحد لذكرناه الى جانب (محمد بن اسحاق النديم) صاحب كتاب الفهرست و(حاجي خليفة) صاحب كتاب كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون وسواهما من اساطين الوراقين القدامى.
(قاسم بن محمد رجب العبيدي) ولد في مدينة من ضواحي دار السلام بغداد سنة 1337 هـ - 1919م في اسرة متواضعة الحال مما اضطره الى ترك الدراسة بعد ان اتم الابتدائية وسعى الى العمل في مدينته الصغيرة فلم يوفق، وعندها اضطر الى العمل لدى احد ابناء مدينته بل اقربائه (نعمان الاعظمي) صاحب المكتبة العربية.
كان (قاسم) في نحو الثانية عشرة من عمره، عندما باشر العمل الشاق، وعلى الرغم من جهوده واستقامته واطاعته الا ان صاحب المكتبة كان يسومه العذاب،

ولنترك لقاسم الرجب يروي لنا في مذكراته ما كتبه بعد ذلك بهذا الشأن، كنت اذا احتجت الى عشرة فلوس اجرة عودتي بالسيارة من بغداد الى الاعظمية – محل سكناي – وطلبت منه – من الاعظمي – هذا المبلغ فانه يتلكأ ويرفع اصبعه الى (الروزنامة) مشيرا الى ان الشهر لم ينته بعد، ولذا فانه لن يعطيني هذه العشرة فلوس، فاضطر ان اذهب ماشيا حتى لو كان الجو باردا قارسا البرودة. كانت (المكتبة العربية) تقع في (سوق السراي) الذي يضم المكتبات وباعة القرطاسية وصاغة الذهب وغير ذلك، وكانت تعد من خيرة المكتبات ودور النشر، ولقد نشر صاحبها العديد من الكتب التراثية طبع طائفة منها في بغداد والاخرى في القاهرة ونتيجة المضايقات، ووجود من يعاونه، قرر (قاسم الرجب) ترك العمل في المكتبة العربية.

مكتبة المثنى

في سنة ١٣٥٤ هـ – ١٩٣٥م افتتح (قاسم محمد الرجب) مكتبة المثنى مستعينا بعدد من الادباء والمثقفين الذين توسعوا فيه الذكاء وعشق الكتب والثقافة والتواضع والابتعاد عن جشع التجار. كانت مساحة المكتبة صغيرة وبدأ (الرجب) بداية طيبة، فلقد باشر مراسلة الكتابيين السوريين والمصريين واللبنانين وغيرهم، فاستجاب له قسم منهم وشيئا فشيئا وثق به جمع من ارباب المكتبات والناشرين العرب، حيث عجرت مكتبته الصغيرة عن استيعاب طروط الكتب والمطبوعات التي راحت تنهال عليه بالبريد من كل مكان.
في سنة ١٩٣٥ م تعرف قاسم الرجب الى كوركيس عواد ١٩٠٨- ١٩٩٢ م كان عواد معلما في احدى مدارس الموصل، وكان قد درس في دار المعلمين في بغداد وتخرج في سنة ١٩٢٧م، غير انه بقي يتردد على العاصمة، ويمضي الكثير من اوقاته في دير الكرمليين حيث ملتقى الاب انستاسي ماري الكرملي ١٨٦٦ – ١٩٤٧ م ويعرج على سوق السراي، حيث تقع المكتبات وباعة الكتب وفي احدى الزيارات تم التعارف بين الرجب وعواد وكانت تلك الفرصة بداية لصداقة حميمة امتدت طيلة عمري الرجلين، وكان لذلك التعارف اثره في تنمية الثقافة في العراق والوطن العربي وتشجيع ودعم الكتاب العربي وحفظ ورصد المخطوطات وغير ذلك.
بعد ربع قرن من ذلك اللقاء يذكر كوركيس عواد (الذخائر الشرقية – دار الغرب الاسلامي – بيروت – ١٩٩٩ م ج٣ ص ٢٥٠-٢٥٢) فيقول:
اني ما زلت اذكر ذلك الكتاب اول كتاب اقتنيته من تلك الملاقاة وهو «لب اللباب في تحرير الانساب، للسيوطي (طبعة لندن ١٨٤٠م)، فكان حجر الاساس في اقتناء امهات الكتب العربية ونقاشها.
كانت تلك الملاقاة في مكتبته الاولى في سوق السراي، ولم تكن تلك المكتبة يوم ذلك الا دكانا صغيرا لا تتجاوز رقعته بضعة اشبار مربعة وكانت الكتب فيه قليلة محدودة، ولكنها الى ذلك تتسم بميسم الطرافة والنفاسة.
بعد نحو سنة ينتقل عواد الى بغداد يفضل ساطع الحصري ١٨٨٠ – ١٩٦٨ مدير الآثار العام ايامئذ فتشتد الصلة بين الاثنين.
كان (كوركيس عواد) منذ يفاعته مهتما بملاحقة الكتاب، مطبوعا ومخطوطا، وبتوجيه من (الكرملي) راسل مجموعة من المستشرقين ودور النشر الاستشراقية والمكتبات المعنية ببيع نوادر المطبوعات وكانت اجادته الانجليزية تتيح له مثل هذا التحرك.
لقد وضع (العواد) كل معلوماته وخبراته بين يدي (الرجب) وباختصار، كان خبيرا ومستشارا ومكتب سكرتارية لمكتبة المثنى، فكان يتولى مراسلاتها باللغة الانجليزية.
ولهذا فان المكتبة، على صغر حجمها – اكتسبت خلال فترة وجيزة سمعة عالية، بل عالمية.

ذاكرة حاضرة

كانت لقاسم الرجب ذاكرة عجيبة تسعفه في معرفة ما استورده من مطبوعات عربية على مدى تلك السنين، بل هو يعرف اين استقرت فهو يقول لك – مثلا – ان النسخة الوحيدة في العراق من «فهارس المكتبة الجغرافية» تجدها في مكتبة المتحف العراقي وان نسخة كتاب «الفلاحة الاندلسية» لابن العوام تجدها في المكتبة العامة ببغداد، وان نسخة الف ليلة وليلة المطبوعة في بولاق هي اليوم في المكتبة الفلانية. بعد ان توسع عمل المكتبة، انتقلت المثنى الى مكان آخر. وبعد سنة ١٩٥٨م انتقلت المكتبة الى بنايتها الجديدة في شارع المتنبي ولا تزال حتى اليوم في مكانها هذا.
كان «قاسم الرجب» عصاميا، ثقف نفسه بنفسه، ويمكن القول انه يمتلك ثقافة مكتبية مخيفة، فهو يعرف كل شيء عن الكتاب والمؤلفين والمحققين والمترجمين وكذلك اشياء كثيرة عن صناعة الكتاب والتجليد والورق، انواعه واسعاره والاحبار والغراء.. الخ.
مال الى المطالعة مبكرا، فعندما كان يعمل في «المكتبة العربية»، كان يختلس الفرص لمطالعة الكتب الادبية والتاريخية. وكان صاحب المكتبة يضطهده بشكل لا يصدق فهو يمتنع عن اعارته الكتب ويمتنع حتى عن بيعها له!.
كان «نعمان الاعظمي» يرى ان مطالعة الكتب تصرف مستخدمه «الرجب» عن العمل، ولهذا كان يحرص على ابعاده عن هذا الدرب، درب الثقافة والعلم!.
لكن قاسم الرجب، كان نهما يهوى الادب والمطالعة، واستطاع بعد لأي اقناع «الاعظمي» ان يبيعه شيئا!.
كان اول كتاب طالعه هو احد اجزاء كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني واستطاع بعد مثابرة حفظ مقتطفات من كتاب الاغاني ومن اشعار الفحول وغير ذلك، وقد اعانه «عبد الحميد زاهد» صاحب المكتبة الوطنية في بغداد، وكان اديبا فاضلا، على اقتناء الكتب والمطبوعات باسعار معتدلة.
وعندما اصدر مجلة (المكتبة) ساهم في تحريرها، ففي رد له على الدكتور يوسف عز الدين وخالد الشواف – وعبد الرزاق الهلالي حول مشكلة الكتاب العراقي قال: «ان توزيع الكتاب العراقي في الخارج يصطدم بعقبات كثيرة لانه ليس بامكانه مواجهة اي كتاب عربي في الاسواق العربية من حيث الشكل والمضمون، غلاء سعره، قلة الخصم (العمولة)، تفاهة مواضيعه واخراجه وطبعه، فقر الكتاب المادي واستعجاله البيع والربح السريع وعلاوة على كل هذا تاتي القيود والمالية المعقدة في التحويل والتصدير الخارجي وهي قيود تحد من تصدير الكتاب العراقي الى الخارج.
ان الكتاب العراقي الجيد يبيع نفسه هذا امر لا شك فيه.. هل تصدى الناشر او الموزع لكتب الدكتور الوردي فمنع او حد من توزيعها وانتشارها في الوقت الذي كانت كتبه رائجة، ثم هل تمكن الناشر او الموزع العراقي من تصريف كتاب الدكتور الوردي الاخير حين بار (كسد) في الاسواق ولم يلق الاقبال المطلوب) المكتبة ع٣ (تموز – يوليو ١٩٦٢م).
وكان من افضل مساهماته في (المكتبة) سلسلة مقالات استدرك فيها على كتاب المستشرق الالماني (كارل بروكلمان) الشهير (تاريخ الادب العربي)، وهي مستدركات دلت على تتبع دقيق واحاطة واسعة بعالم المخطوطات.

مجلة المكتبة

صدرت مجلة مكتبة «المثنى» سنة ١٩٦٠ م شهرية بحجم صغيرة (٢٢×١٥) وبصفحات لا تتجاوز الخمسين صفحة ثم تضاعف حجمها خلال سنوات.
في البداية كانت تحمل اسم «قائمة» وعندما لمس المسؤولون انها اهم من قائمة تكتفي بسرد عناوين الكتب واسعارها وغير ذلك مما يقتضيه في البيع والسوق – منحتها وزارة الاعلام امتياز مجلة شهرية – ولما كان قانون المطبوعات العراقي يوجب ان يكون رئيس تحرير المطبوع من حملة الشهادات الجامعية، فقد انيطت رئاسة تحرير (المكتبة) الى السيد عبد الكريم جواد المحامي.
استمرت مجلة المكتبة بالصدور حتى اواخر سنة ١٩٧٢م حيث الغي امتيازها . تعاقب على تحرير هذه المجلة عدد من الادباء الامعين كان من ابرزهم: مهدي القزاز، وعبد القادر البراك.
احتضنت (المكتبة) على صفحاتها الصغيرة خيرة الاقلام العراقية والعربية منها: د. محمد رضا الشبيبي، مصطفى جواد، يوسف عز الدين، د. علي جواد الظاهر، د. محمد مكية، د. ابراهيم السامرائي، عبد الرزاق الهلالي، مشكور الاسدي، يوسف سعيد، (الاب)، عماد عبد السلام ، ناجي محفوظ، جليل العطية، الشيخ محمد هادي الاميني.
نشرت المجلة سلسلة لسلمان هادي الطعمة عن مخطوطات كربلاء، واخرى لخليل ابراهيم العطية عن نخائر المخطوطات العربية وثالثة عن نواد المطبوعات في كركوك لعطا ترزي المحامي.
ومن اهم ما قامت به (المكتبة) نشر مذكرات قاسم الرجب في سوق السراي، فتعد هذه المذكرات مرجعا لا يستغني عنه من اراد دراسة الثقافة العراقية والعربية وتطور حركة نشر الكتاب العراقي في القرن العشرين.
اطلعت على عشرين حلقة من هذه المذكرات لكنها لم تتم واحسب ان ظرفا ما، منع (المكتبة) من نشر هذه المذكرات كاملة على اهميتها.
ان مجلة (المكتبة) التي صدرت ما بين (١٩٦٠ ، ١٩٧٢م) تعد سجلا حيا للثقافة العراقية خلال هذه الفترة وما قبلها، ومجموعتها الكاملة شديدة الندرة، وهذا يفسر عدم اعادة طبعها مصورة، اسوة بالكثير من المجلات الثقافية التي يسرها اليوم التصوير، الفوتوكوبي او الافسيت فاحتلت اماكن لائقة بها في المكتبات العاملة والخاصة.

السفرة الاولى:

في مايو (ايار) سنة ١٩٤٤م سافر (قاسم الرجب) اول مرة الى خارج العراق اختار مصر وجهة له للاطلاع على المكتبات ودور النشر التي يعرف اصحابها بالمراسلة، استقل طائرة هندية عملاقة من مطار الحبانية اقلته الى القاهرة بعد توقف قصير في مطار اللد.

في القاهرة مع امين الخانجي كبير ناشري مصر

استمرت مجلة المكتبة بالصدور حتى اواخر سنة 1972م حيث الغي امتيازها . تعاقب على تحرير هذه المجلة عدد من الادباء الامعين كان من ابرزهم: مهدي القزاز، وعبد القادر البراك.
احتضنت (المكتبة) على صفحاتها الصغيرة خيرة الاقلام العراقية والعربية منها: د. محمد رضا الشبيبي، مصطفى جواد، يوسف عز الدين، د. علي جواد الظاهر، د. محمد مكية، د. ابراهيم السامرائي، عبد الرزاق الهلالي، مشكور الاسدي، يوسف سعيد، (الاب)، عماد عبد السلام ، ناجي محفوظ، جليل العطية، الشيخ محمد هادي الاميني.

في مكتبة المخطوطات في المتحف العراقي مع كوركيس عواد

طه حسين والمستشرق (بول كراوس) ومصطفى عبد الرزاق وحسن ابراهيم حسن.
القى (بدوي) خلاصة رسالته كانه يحفظها عن ظهر قلب، فلم يتلكا ولم يتعلثم. اضاف (الرجب) وهو يرد بعض عبارات الرسالة الفلسفية، الغامضة قائلا : ولم افهم منها شيئا..!
وفي سفرته المصرية وقع صاحب مكتبة المثنى على كنز دهش له، فلقد كانت الكتب المطبوعة في اوروبا قد انقطعت عن العراق بعد الحرب العالمية الثانية فاتصل بالقاضي احمد حسين – شقيق الدكتور طه حسين، فوجد عنده مجموعة من نفائس ما طبع في اوروبا وباسعار رخيصة فاشترى معظمها وشحنها مع ما اشتراه كله بالبريد اذ لم يكن شحن الكتب سهلا الا بالبريد. وكان (القاضي احمد) يريد التخلص من مكتبته بسبب شكواه من اخيه (طه حسين) الذي كثيرا ما ضايقه باستعارة ما يحتاج اليه هو واصدقاؤه وطلابه!.

الكتب بالوزن!

حدثني (ابو زهير عبد الرحمن عبد الجبار التكريتي) – المتخصص بالامثال البغدادية (١٩١٤ – ١٩٨٧م) قال:
(اذكر انني اشتريت كتاب معجم الادباء لياقوت الحموي (طبعة احمد الرفاعي) باجزائه العشرين بدينار و احد فقط!).
واثناء الحرب العالمية الثانية ارتفعت اسعار الورق ارتفاعا خياليا فبيعت الكتب بالوزن وقد بيع بهذه الطريقة كثير من الكتب منها ديوان (شقائق النعمان) وكتاب (ذكرى المتنبي في الف عام) لعبد الوهاب عزام وغيرها.
كان (قاسم الرجب) اول ناشر عربي يفكر بطبع الكتب بطريقة التصوير (الاوفسيت)، ففي سنة ١٩٦٣م اكتشف في مخازنه كميات كبيرة من الورق تلف بعضه وبار (كسد) البعض الآخر – وسرق قسم منه – فابتدأ بطبع اول كتاب (عجائب الاقاليم السبعة)، لسهراب (طبعة فيينا – ١٩٢٦م). طبع الكتاب في مطبعة الاعظمي لصاحبها (محمد صالح الاعظمي) وكان اخراجه متقنا طبق الاصل.
اما الكتاب الثاني فكان (صورة الارض) (لأبي جعفر محمد بن موسى الخوارزمي) المطبوع في فيينا، ايضا وقد طبعه في مطبعة الرابطة لصاحبها (عبد الفتاح ابراهيم) بعد ذلك اكتشف ان تكاليف الطبع والشحن في ايران ارخص من العراق فباشر باعداد ٤٠٠ عنوان لكتب تراثية نادرة طبعت في اوروبا والوطن العربي، وقد ساعده في اعداد هذه الكتب (كوركيس عواد) وشقيقه (جاسم محمد الرجب).
وفي سنة ١٩٦٦ اصدرت مكتبة المثنى قائمة بنوادر المطبوعات الكتب التي احيتها بالنشر – بطريقة التصوير – الاوفسيت وقد طبعت هذه القائمة في طهران. ونشرت مجلة (المكتبة) في عددها الخامس والاربعين (شباط / فبراير ١٩٦٥م) كتاب شكر من الرئيس (جمال عبد الناصر) يشكر فيه مكتبة المثنى لتقديمها الكتب التي قامت بطبعها مصورة بالاوفسيت وقد وقع الرسالة (محمود الجيار) مدير مكتب الرئيس للشؤون الداخلية.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2269)
السنة الثامنة
الخميس (13)
تشرين الاول 2011

الأصول المطبوعة التي تحييها مكتبة المثنى

د.حسين مؤنس
كاتب وباحث مصري

كتب الاستاذ الباحث حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الاسلامية في مدريد في العدد الاخير من صحيفة المعهد بالعنوان اعلاه الكلمة التالية: «ليس هناك باحث لم يتعرض لصعوبة الحصول على اصول عربية طبعت من خمسين او ستين – وربما مائة – سنة واصبحت نسخها اليوم اعز على الوجود من اندر المخطوطات. وقد لجانا منذ حين الى تصوير هذه الكتب، وفي مكتبتي مصورات لصفة افريقية للبكري الذي نشره دي سلان في الجزائر سنة ١٨٥٧ وجزء نزهة المشتاق للادريس الخاص بالمغرب والاندلس الذي نشره دوري ودي خويه سنة ١٨٩٧ وغير ذلك كثير مما تكلف الكثير. وقد تنبه السيد قاسم السرجب صاحب مكتبة المثنى في بغداد الى هذه الصعوبة فتجرد لتذليلها، والسيد الرجب من اجلاء الكتبيين في شرقنا العربي وقد خطر ببالي ان موضوع الوراقة والوراقين (تجار الكتب واصحابها) موضوع طريف يستحق ان يدور عليه كتاب نظرا لما اسهم به الكتبيون من نصيب كبير في تاريخ الثقافة العربية..

وجدير بالملاحظة هنا ان الاندلسيين كانوا يفرقون بين الوراق، وهو تاجر الكتب والرقاق، وهو تاجر الادوات الكتابية كما نقول اليوم وكان في قرطبة شارع خاص للوراقين في حي الاسواق شرقي الجامع وشارع اخر للرقاقين في الربض الغربي على مقربة من احد ابواب قصر الخلفاء...

تنبه قاسم الرجب اذن الى ضرورة اعادة طبع ما تيسر احياؤه من الكتب النافذة، وهو يقوم بذلك بطريقة التصوير والطباعة المعروفة بالاوفسيت، وقد نبهت على فائدة اللجوء الى هذه الطريقة في احياء المطبوعات القديمة من عشر سنوات ايام كنت في ادارة الثقافة، وقدمت للمطبعة.. فعلا قاموس تاج العروس.

فقالوا ولم لا نعيد تحقيقه ونشره؟ وانقضت على ذلك سنوات عشر اسمع بعدها انهم ينشرونه اليوم بالاوفست في القاهرة.

عن مجلة المكتبة
العدد 67 السنة التاسعة
كانون الاول 1968

في الثلاثينات

في الخمسينات

قبيل رحيله

ربع قرن على معرفتي بالاستاذ قاسم محمد الرجب

كوركيس عواد
كاتب وباحث مصري

عرفته اول ما عرفته، في صيف سنة ١٩٣٦، وكان ذلك على يد صديقنا الاستاذ الاديب الالمعي احمد حامد الصراف. فكانت تلك المقابلة، فاتحة صداقة ادبية خالصة، دامت نيفا وربع قرن من الزمان، وارجو ان يمتد بها العمر على مدى الحياة.

اني ما زلت اذكر ذلك الكتاب – اول كتاب اقتنيته منه في تلك الملاقاة – وهو «لب اللباب في تحرير الانساب» للسيوطي (طبعة ليدن سنة ١٨٤٠)، فكان حجر الاساس في اقتناء امهات الكتب العربية ونفائسها.

كانت تلك الملاقاة في مكتبته الأولى في سوق السراي. ثم تكن تلك المكتبة يوم ذاك إلا دكانا صغيرا، لا تتجاوز رقعته بضعة اشبار مربعة، وكانت الكتب فيه قليلة محدودة، ولكنها الى ذلك تتسم بميسم الطرافة والنفاسة.

لقد كان صديقنا الأستاذ قاسم محمد الرجب، يحسن اختيار الكتب التي يستوردها، ويتنسم اخبارها، فكنت تجد عنده نوادر المطبوعات العربية. فهنالك كتب عربية نشرها كبار المستشرقين في ديار اوروبة واميركة. وهنالك كتب طبعت في الهند وباكستان وتركيا وايران. اما ما طبع في بلاد المغرب وسائر الاقطار العربية، فتجد منها كل طريف ونادر.

كانت مكتبة المثنى، على صغرها في ذلك الزمان، وسيلة حسنة مكنت الناس في العراق وغير العراق، من احراز اندر المطبوعات العربية واعزها، فان الاستاذ الرجب، كان – فيما اعهد – الكتبي الوحيد في العراق الذي تيسر له ان يدخل الى العراق اكثر ما عرف من المطبوعات العربية التي حققها المستشرقون.

وعندي، بعد اتصالي به طوال هذه السنين، انه من اعرف العارفين بالكتب العربية، فهو على علم واسع بما طبع منها في مختلف انحاء الدنيا، والمامه باحوال مؤلفيها وعصورهم قلما يجاريه فيه احد.

واذا كان قد اشتهر في العصور السالفة جماعة من العلماء بالكتب، امثال ابن النديم صاحب «الفهرست»، وحاجي خليفة صاحب «كشف الظنون»، ففي وسعنا القول ان الاستاذ قاسم محمد الرجب، ممن ينبغي ذكرهم في زمننا في هذا الميدان الفسيح.

وللاستاذ قاسم ذاكرة عجيبة تسعفه في معرفة ما استورده من مطبوعات عربية على مدى تلك السنين، بل انه ليدلك على دور الكتب العامة والخاصة التي استقرت فيها الاعلاق النفيسة من تلك المطبوعات.

فهو يقول لك ان النسخة الوحيدة في العراق من فهارس المكتبة الجغرافية انما تجدها في مكتبة المتحف العراقي، وان نسخة كتاب «الفلاحة الاندلسية» لابن العوام تجدها في المكتبة العامة ببغداد. وان نسخة «الف ليلة وليلة» المطبوعة في بولاق هي اليوم في المكتبة الفاتيكانية، الى غير ذلك من الافادات التي تضيق هذه الكلمة عن استيعابها.

ثم اخذت مكتبة المثنى، بذكاء صاحبها وبعد همته، تتسع سنة بعد اخرى، فانتقلت من موضعها الاول الذي ذكرناه، الى موضع اوسع منه ثم الى ارحب من كليهما. واخيرا انتقلت الى بنائها الحالي الذي تملكته قبل نحو من سنتين. فضاق – على سعته – بمحتوياته التي شملت شتى صنوف المعرفة.

وعندي، ان مكتبة المثنى، ليست مكتبة لبيع الكتب فقط، بل هي ملتقى الطبقة المثقفة في البلد. يقصدها الاديب والشاعر والمؤرخ والصحافي والقانوني والطبيب والمعلم وسائر رجال العلم والبحث والتتبع.

لقد فاقت مكتبة المثنى سائر مكتبات العراق في اتساعها وتنوع المطبوعات التي ترد اليها، وبزتها في سعة علاقاتها بمختلف انحاء العالم. ان صاحب مكتبة المثنى قد ابتدأ حيث انتهى غيره من الكتبيين.

ولا غرو ان يكون الاستاذ قاسم محمد الرجب قد خدم الثقافة في العراق خدمة عظمى يسجلها له التاريخ، ويقدرها له اصدقاء الكتب ومحبوها.

من مقدمة (مذكرات قاسم محمد الرجب)

مجلس قاسم محمد الرجب

يونس السامرائي

هو قاسم بن محمد بن رجب صاحب اكبر مكتبة تبيع الكتب في العراق ولد في الاعظمية عام ١٩١٩م.

ولما ترعرع درس العلوم الابتدائية في مدارس بغداد ثم اشتغل في معية المرحوم الحاج نعمان الاعظمي حيث تعلم منه كيفية بيع الكتب وشرائها وبقي معه سنين عديدة وبدأ بعد ذلك يشتغل لوحده حتى صار صاحب اكبر مكتبة في العراق وهي (مكتبة المثنى) التي طار صيتها في مصر ولبنان وسائر البلدان العربية والاسلامية والاجنبية ودوائر الاستشراق.

وقد طبع على حسابه بالاوفست عددا كبيرا من الكتب مثل تاج التراجم في طبقات الحنفية: لابن قطلوبغا نشره في بغداد عام ١٩٦٢م كما اصدر عدة فهارس لمكتبة المثنى عددها تسعة فهارس بدأت من عام ١٩٥٨م حتى عام ١٩٦٨ م.

كما طبع نوادر الكتب العربية القديمة في طهران بالاوفيست عام ١٩٦٦م وقد نوه بها جميعا الاستاذ كوركيس في رسالته (مشاركة العراق في نشر التراث العربي) الذي نشره عام ١٩٦٩م.

وبقي المرحوم قاسم مثابرا ونشطا في توسعة مكتبته حيث فتح له عدة فروع في لبنان والبصرة والموصل.

واصدر مجلة المكتبة التي كانت تعنى بالكتب والمكتبات عدة سنوات وكان له مجلس عام في مكتبته تصم الادباء والشعراء ومحبي الكتب وكان يسعى رحمه الله دائما في مساعدة المؤلفين بشراء عدد من مؤلفاتهم عند طبعها تشجيعا لهم وحثهم على التأليف والانتاج.

وخير من وصفه الاستاذ عبد القادر البراك فقال: (كان لانتقال الاستاذ قاسم محمد الرجب الناشر الشهير وصاحب مكتبة المثنى الى الرفيق الاعلى على النحو المفاجيء المؤلم افجع الاثر في مختلف الاوساط العلمية والادبية في العالمين العربي والاسلامي، وفي المجامع والجامعات الاجنبية ومحافل الاستشراق، حيث فقدت في هذا الرجل اكبر طاقة احييت كل ما هو ثمين ومفيد من الاثار العربية لتضعها بين ايدي الباحثين انيقة دقيقة رخيصة، واكبر منجم لتزويد المتطلعين للدراسات العلمية بما كانوا يتطلعون اليه من نوادر الكتب والمخطوطات فما كان يبخل على طالب علم مهما كانت صفته وهويته بما يحتاج اليه كما كانت تضمه خزانته من جليل التراث، وما كان ليتردد في مساعدة اي محقق او مؤلف يجد في الاثر الذي يحققه او يؤلفه فائدة للاجيال الطالعة مهما بلغت هذه المساعدة، فبفضل هذه الصفات النادرة استطاع الفقيد قاسم محمد الرجب ان يضطلع بما عجزت عن الاضطلاع بها مجامع اللغة والبحث في الاقطار العربية منفردة ومجتمعة. بل ان ما نشره من التراث العربي الاسلامي قد خفف العبء عن كاهل حكومات ودول كان يجب ان تضطلع بما حققه لتؤدي ما اداه من جليل الخدمات للثقافة العربية والاسلامية عبر العصور والاجيال.

لقد عشق قاسم محمد الرجب (الكتاب) مذ يفاعته فكان سميره في ليله ونهاره وكان يكرس كل ما يملك من الطاقات والجهود لرفع مستوى الكتاب في شكله وموضوعه، فلم يدخر وسعا في زيارة اي بلد من بلدان العالم الشرقي والغربي يعتقد انه سيقف فيه على نوادر المخطوطات والآثار العربية ليشتريها بأي ثمن تعرض فيه وليزود بها المكتب العامة العراقية التي اصبحت بفضل جهوده من اهم المخازن التي ينتهل منها رواد المعرفة والبحوث ما يحتاجون اليه من المراجع والمصادر، ذلك ان ما ضمته مكتبة المتحف العراقي ومكتبة المجتمع العلمي ومكتبة جامعة بغداد ومكتبة الاوقاف ومكتبة جامعة المستنصرية وغيرها من المكاتب العامة وكان بفضل اقدامه على استجلاب ما عجز الاخرون عن استجلابه من الكتب والآثار كما كان له الفضل في مد المكتبات الخاصة المتعددة في العراق بما جعلها ترتفع عن مستويات امثالها في العديد من الاقطار العربية.

ذلك ان الاقدام على تأسيس المكتبات العامة والخاصة والتوسع في الانفاق على هذه المكتبات ما كان ليتحقق لولا انصراف هذا الرجل الى توظيف كل ما يملك من الاموال والجهود لاستيراد الكتب والتعريف بها بشتى الوسائل الاعلامية ليتعرف عليها من لم يكن عرفها وليجد من التعريف بها ما يحفزه الى اقتنائها.

فالمرحوم قاسم الرجب: كان على الرغم من احتراقه للتجارة يولي البحث العلمي والتاريخي والعقائدي الكثير من اهتمامه ولطالما عقب على كثير مما كتبه كبار العلماء والادباء مستدركا ما فاتهم الوقوف عليه ولطالما تلقى الرسائل المصرية عن كبير تقديرهم لعلمه وفضله واظهارهم على ما لم يكونوا واقفين عليه قبل ان يعقب على ما كتبوه برسائله وتعليقاته.

وان من يتصفح مجلة (المكتبة) وهي المجلة الفذة التي تولى اصدارها قرابة العقد من السنين يجدها حافلة بكثير من التعليقات والملاحظات والتي تضع قاسم الرجب بين كبار الباحثين والمحققين في العالم العربي.

وبعد هذا الجهد المتواصل في خدمة العلم والمعرفة توفي بالسكتة القلبية في بيروت يوم الاثنين ٩ ربيع الاول ١٣٩٤ هـ = الاول من نيسان ١٩٧٤ م ونقل جثمانه الى بغداد ودفن في مقبرة الخيزران بالاعظمية بجنب الخطاط هاشم محمد البغدادي وقد كتب على قبره:

ازائر قاسم في دار حق
تبوأها مع المتبوئينا
رعاك الله اهد اليه روحا
بذكر (الحمد) تتلوها مبينا
وزره ترحما فله مساع
عممن العرب والمستعربينا
افاض عليهم بالكتب نورا
تألق في عقول القارئينا

كان له مجلس يعقد في مكتبته يحضره رجال الفكر والادب والمعنيون بالكتب والمؤلفات وبقي هذا المجلس عامرا الى حين وفاته رحمه الله تعالى.

(من كتابه مجالس بغداد) بغداد 1985

تحية الى مجلة المكتبة

سلمان هادي الطعمة

تقف اليوم مجلة «المكتبة» الزاهرة في عداد المجلات العربية الرائدة، لما قدمته من ثقافة اصيلة وفكر هادف، وقد سلخت من عمرها احد عشر عاما وما فتئت تحمل رسالة الفكر وسفارة الادب في البلاد العربية والاجنبية مؤدية رسالتها الثقافية على اتم وجه، بما دأبت على نشره من بحوث ومواضيع تتسم بالجدية والطرافة، وعنت في تسجيل التيارات الادبية بايجاز واغنت عالمنا باخبار الادب والفكر والفن والثقافة العامة ودعت الى احياء التراث العربي الاصيل والكشف عن كنوزه وذخائره. وهي بذلك تعتبر من احسن المجلات التي تعالج قضايا الكتب والكتاب. واصبحت من المظان الفكرية التي يرجع اليها المنقبون والباحثون عن الحقيقة.

وبالرغم من قلة عدد صفحاتها وصغر حجمها، فانها تواصل سيرها في سبيل خدمة المجتمع العربي دون كلل او ملل، وهي تزيد محصولنا الفكري قوة الى قوة.

ان وجود مجلة كهذه هو دعم وتشجيع وتطوير تراثنا حيث تعكس لنا صورا دقيقة لمراحل نتاجات الكتاب وسير المؤلفين. وقد كان للدور الذي لعبته «المكتبة» في تادية رسالتها الثقافية من خلال فترات زمنية مختلفة له اثره الكبير في ديمومتها وصمودها ووقوفها على قدميها بثبات، ولا ننس دور مؤسسها الباحث الجليل الاستاذ قاسم محمد الرجب الذي بذلك جهودا مضنية في استمرارية صدورها واخراجها بشكل جميل منسق، ومسايرتها للمجلات العربية الحديثة، والعمل على تطويرها. فاهنيء صديقنا الاستاذ قاسم الرجب على مجلته هذه، وارجو من الاعماق مزيدا من التقدم ودوام الازدهار لكي تمضي في تادية رسالتها الثقافية والادبية.

عن مجلة «المكتبة»
العدد 88 تشرين الاول 1972

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
مدير التحرير: علي حسين
الاخراج الفني: نصير سليم
التصحيح اللغوي: نوري صباح
طبعت بمطابع مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون

مكتبة المثنى عام ١٩٦٠ ويظهر الراحل قاسم الرجب جالسا في وسط الصورة

عراقيون
من زمن التوهج